م/1909.198

جامعة 08 ماي 1945 قالمة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ والآثار

م/13/170

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 08 ماي 1945م - قالمة -

قسم :التاريخ والآثار كلية :العلوم الإنسانية والاجتماعية التخصص: تاريخ عام

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ العام بعنوان :

السلطان سليم الأول ودوره في ضم المشرق العربي (الشام ومصر نموذجا :(1512م-1520)

من إعداد الطالبة :
فيروز دالي

تحت إشراف الأستاذة:
سعاد برمضان

لجنة المناقشة :

الأستاذ	الرتبة	الصفة	الجامعة
لدكتاء عطاء الله	أستاذ مساعد -ب-	رئيسا	جامعة 08 ماي 1945م قالمة
لدكتاء برمضان	أستاذ مساعد -أ-	مشرفا ومقررا	جامعة 08 ماي 1945م قالمة
مدوني محمد	أستاذ مساعد -أ-	عضوا مناقشا	جامعة 08 ماي 1945م قالمة
			جامعة 08 ماي 1945م قالمة

السنة الجامعية: 2012م /2013م.
1433هـ/1434هـ

السلطان سليم الأول و دوره في ضم المشرق العربي

(الشام و مصر نموذجا: 1512م – 1520م)

بسم الله الرحمن الرحيم

تشكرات

الحمد لله حمدا كثيرا فلا توفيق إلا به ولا بركة إلا باسمه.

الحمد لله الذي أيدنا بتوفيقه في انجاز هذا العمل المتواضع والقائل في كتابه العزيز "وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب" والصلاة والسلام على نبي الله محمد.

أتقدم بالشكر الجزيل إلى صاحبة العمل الجاد والأخلاق الرفيعة وقدوتها إلى الأستاذة " برمضان سعاد " على ما قدمته لي من نصائح وإرشادات.

كما أتقدم بالشكر إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد لانجاز هذا العمل.

شكرا جزيلا.

المقدمة

المقدمة

شهد العالم الإسلامي خلال القرن السادس عشر تغييرات أساسية، ففي السنوات الأولى من هذا القرن اصطدمت الدولة العثمانية بدولة المماليك في الشام ومصر، فكانت هذه الدولة الناشئة محط إعجاب الدولة المملوكية نظرا لأن العثمانيين كانوا قد رفعوا راية الجهاد ضد أوروبا الشرقية المسيحية (الإمبراطورية البيزنطية)، وكان المسلمون في أرجاء العالم يطربون لسماع انتصاراتهم المتتالية.

وقد توالى على الخلافة العثمانية ثلاثة عصور كان أولها عصر القوة، والذي بدأ منذ عهد عثمان مؤسس الدولة وصولا إلى سليم الأول وابنه سليمان القانوني، فبعد أن تشبعت الدولة العثمانية بفتوحاتها الأوروبية أخذ سليم الأول يوجه أنظاره نحو المشرق العربي واهتم بتوحيد الأمة الإسلامية وجمع شملها، ففكر في أن خضوع العالم العربي يجب أن يكون للعثمانيين خاصة وأن دولتهم أقوى الدول الإسلامية القائمة يومذاك، فبعد أن هيأت الفرصة للسلطان سليم الأول للقيام بانقلاب عسكري ضد أبيه بايزيد الثاني في 1512م أبدى منذ بداية حكمه ميلا إلى سفك الدماء، فاستهل عهده بقتل عدد كبير من إخوته، كما كان محبا لخوض المعارك، وعلى هذا الأساس بدأ سياسة جديدة إزاء المشرق العربي.

لقد عرف العالم الإسلامي تنافس ثلاث قوى إسلامية وكل منها حاولت التوسع على حساب الأخرى كما أرادت أن تحصل على الزعامة، وتمثلت في قوة الصفويون في الشرق (إيران والعراق)، بينما كانت قوة العثمانيين في الغرب (آسيا الصغرى)، وقوة المماليك في بلاد الشام ومصر.

وكان الصفويون من أهل الشيعة بينما العثمانيون والمماليك من أهل السنة وبسبب الصراع على النفوذ تأزمت العلاقات بين العثمانيين والصفويين من جهة وبين العثمانيين والمماليك من جهة أخرى.

وإذا كانت دولة المماليك في حالة ضعف وانحطاط بالمقابل دولة العثمانيين تتنامي وتزدهر وتقوى لذلك نجدهم كانوا يطمحون لزعامة العالم الإسلامي، فكانت علاقاتهم علاقة

مجاملة ومؤازرة ثم تحولت إلى صدام عسكري، وبما أن سياسة الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الأول قامت على القضاء على الصفويين وضم الدولة المملوكية ، وحماية الأراضي المقدسة وملاحقة الأساطيل البرتغالية ودعم حركة الجهاد البحري في الشمال الإفريقي للقضاء على الاسبان، ومواصلة الدولة جهادها في شرق أوروبا، فقد بدأ السلطان بمحاربة الدولة الصفوية وقائدها الشاه إسماعيل الصفوي حيث أنه كان يمثل الخطر المباشر على الدولة العثمانية، وكان الأتراك بصفة عامة يفخرون بأنهم حماة المذهب السني من الشيعة، ومن ثم عمل على تطهير الأناضول من المتحولين إلى المذهب الشيعي.

وعلى هذا الأساس نطرح الإشكالية التالية:

- من هو سليم الأول وماهي أهم انجازاته ؟
- ماهي أهم النتائج التي أسفرت عنها الحرب العثمانية الصفوية ؟
- وفيما تمثلت المعارك التي قادها السلطان سليم الأول ليحقق فتوحاته في الشام ومصر؟
- وماهي نتائج السيطرة العثمانية على مصر؟

وجاء اختياري لهذا الموضوع نظرا لأهمية شخصية السلطان سليم الأول في التاريخ العثماني وضمه للبلاد العربية، ومدى أهمية هذه المرحلة التاريخية في تاريخ الدولة العثمانية العلية، التي تمثل أعظم الدول في تقدمها وازدهارها كذلك تعتبر ظاهرة ضم العثمانيين للبلاد العربية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر من الظواهر التاريخية الجديرة بالدراسة بفعل أن هذا الضم امتد أربعة قرون من التاريخ الحديث وفي أجزاء إستراتيجية في آسيا وإفريقيا، وشكل العالم العربي أحد العوامل الجغرافية الثلاثة الكبرى التي تكونت منها الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر.

ولتسهيل وتيسير عملية البحث في هذا الموضوع اتبعنا خطة تطرقنا فيها إلى أهم العناصر الواجب ذكرها في هذا الموضوع بالإضافة إلى تناول شخصية السلطان سليم الأول وأهم فتوحاته استهليناها بمقدمة وضعناها كتمهيد للموضوع وبعد المقدمة قسمنا الموضوع إلى ثلاثة فصول ، فكان الفصل الأول بعنوان لمحة عن شخصية السلطان سليم الأول وذلك من أجل معرفة المولد والنشأة اللذان كانا عنوانا للمبحث الأول أما المبحث الثاني فجاء تحت

عنوان الأوضاع الداخلية عشية اعتلاء سليم الأول العرش، ثم تناولنا لب الموضوع فكان الفصل الثاني بعنوان الامتداد العثماني باتجاه الشرق، فتحدثنا في المبحث الأول عن سياسة السلطان سليم الأول باتجاه الشرق وكيف أن الدولة العثمانية انتقلت في توسعاتها من الغرب الأوروبي إلى الشرق العربي الإسلامي ، أما المبحث الثاني فاندرج تحت عنوان الصراع الصفوي العثماني ومعركة جالديران فتحدثنا عن الأحداث التي جرت في المعركة ونتائج المعركة، أما المبحث الثالث فتطرقنا فيه إلى العلاقات العثمانية المملوكية والتي مرت بمرحلتين قمنا بتقديم شرح عن كل مرحلة، أما فيما يخص الفصل الثالث فوضعناه تحت عنوان الضم العثماني لبلاد الشام ومصر وانهيار حكم المماليك، فكان المبحث الأول تحت عنوان ضم العثمانيين بلاد الشام : معركة مرج دابق 1516م واستهليناه بالتحدث عن الدوافع التي أدت بسليم الأول إلى التوجه إلى الشام ومصر، أما المبحث الثاني فاندرج تحت عنوان ضم العثمانيين مصر : معركة الريدانية 1517م، أما المبحث الثالث فكان بعنوان انجازات سليم الأول بعد فتح مصر وانهيار الحكم المملوكي، ثم تحدثنا بصورة وجيزة عن انضمام الحجاز واليمن والعراق، وفي الأخير وكختام لدراسة هذا الموضوع وضعنا خاتمة جاءت كخلاصة واستنتاجات وحوصلة للموضوع أجبنا فيها عن الإشكالية المطروحة في المقدمة.

وقد اتبعنا في بحثنا وعملنا المنهج الوصفي التحليلي حيث قمنا بالتحدث عن أهم المعارك وبينا أهم الأحداث التي جرت في عهد السلطان سليم الأول ولتسهيل فهم ماتناولته هذه الفترة من تاريخ الدولة العثمانية.

ولإثراء الموضوع حاولنا الإلمام والحصول على قدر كبير من المصادر والمراجع التي تناولته بأدق تفاصيله، ومن بينها كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك المحامي وأفادنا في المبحث الأول في التحدث عن مولد السلطان سليم الأول وأيضا في المبحث الثاني في الفصل الثالث الذي تناولنا فيه معركة الريدانية 1517م، وكتاب تشالديران أو سليم الأول العثماني وإسماعيل الصفوي لشوقي أبو خليل وأفادنا هذا الكتاب بشكل كبير في المبحث الثاني من الفصل الثاني في التحدث عن معركة جالديران وأيضا كتاب آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني لابن زنبل الرمال وأفادنا هذا الكتاب في المبحث الأول من الفصل الثالث، كما أفادنا كتاب تاريخ العرب الحديث لجميل بيضون

في التطرق إلى علاقة العثمانيين بالمماليك وأيضا كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس الذي أفادنا في نفس العنصر، وغيرها من المصادر والمراجع.

ومن بين الصعوبات التي واجهتني أثناء انجازي لعملي :

- قلة المصادر والكتب المتخصصة حول الموضوع.
- التنقل إلى مكاتب أخرى خارج الولاية من أجل الحصول على قدر كبير من المصادر والمراجع.

المبحث الأول: المولد والنشأة

لقد اتفق المؤرخون على تقسيم سلاطين الدولة العثمانية إلى مجموعتين: سلاطين الفترة الأولى وهم عشرة سلاطين أولهم عثمان الأول وينتهون بالسلطان سليمان العظيم، وقد حكموا الإمبراطورية في الفترة من عام 1299م إلى عام 1566م وقد قامت على سواعد هذه المجموعة عظمة الدولة العثمانية، أما المجموعة الثانية فعددها ستة وعشرون سلطانا أولهم سليم الثاني وآخرهم محمد السادس وقد حكموا الإمبراطورية في الفترة الممتدة من عام 1566م إلى عام 1922م[1].

ونحن بصدد التطرق إلى سلطان من سلاطين المجموعة الأولى وهوالسلطان سليم الأول ودوره في ضم بلاد الشام ومصر.

هناك اختلاف بين المؤرخين حول تاريخ مولد سليم الأول لكن المرجح أنه ولد سنة 885 هجرية بأماسيا[2]، وهو ابن السلطان بايزيد الثاني وتاسع سلاطين آل عثمان وهو أول خليفة منهم لأن السلاطين بعده خلفاء أيضا أي أن كلا منهم سلطان وخليفة أي له السلطتان السياسية والدينية[3]، جلس على العرش سنة 918 ه، وعمره 46 سنة، وكان مشهورا في شبابه بالشجاعة وحب الحرب، كان محبوبا لدى الجيش ذو شخصية قوية، عسكري بفطرته، لذا كانت نظرته إلى القضايا كلها من وجهة نظر عسكرية، فيرى أن الأمور المستعصية لا تحلها إلا القوة، وهذا ماجعل العسكريين يحبونه، ويعملون على تسلمه السلطة[4].

---

[1] - ناهد إبراهيم دسوقي : **بدايات الإصلاح في الدولة العثمانية وأثر الغرب الأوروبي فيها (1789م-1807م)**، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2006م، ص 44.

[2] - إبراهيم بك حليم : **تاريخ الدولة العثمانية العلية (التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية)** ، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، 1408ه، 1988م، ص 79.

[3] - جرجي زيدان : **مصر العثمانية**، تح ودرا وتع : محمد حرب، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1422ه،2002م، ص68.

[4] - إبراهيم بك حليم: **المصدر السابق**، ص 79.

وقد سبقته سمعة يحسد عليها، كان قد حصل عليها خلال سنوات حكمه لولاية طرابزون، فهو قائد حربي ممتاز، يقف بشخصه على رأس قواته، وهو إداري نزيه وكفء، سني لايمكن الشك في استقامة عقيدته، قليل الميل إلى الترف واللهو[1].

وكان رجلا واسع الثقافة، شاعرا، عالما، وكان استراتيجيا فذا، وكانت تأتيه تقارير من أنحاء العالم، وقد واجهته تحديات خطيرة تتصل بوراثة العرش استطاع حسمها.

أدرك سليم الأول أن هناك مخاطر هائلة يمكن أن تصيب الدولة بسبب النشاط الشيعي في منطقة الأناضول فقام بالتصدي للشيعة، واستطاع أن يحقق نصرا حاسما على الصفويين ويستولي على عاصمتهم تبريز"Tabriz " وقد حال خطر الصفويين دون تحقيق مواصلة الفتح الإسلامي في الأناضول وفي بلاد التركستان الذي كان يدور بخاطره[2].

ولم يكن سليم الأول ينام إلا قليلا، ممضيا قسطا طويلا من الليل في الاطلاع على الدراسات الأدبية ، وكان الشعر الفارسي والتاريخ من أحب الأشياء إلى قلبه، ورغم قسوته فانه كان يميل إلى صحبة العلماء الذين كرمهم، ورقى كثيرا منهم لتولي وظائف عليا وهامة، وكان يصطحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك، وقرر سليم أن يعتمد على الانكشارية الذين ساندوه، وبفضل قوتهم في استانبول وصل إلى العرش، فزاد أعدادهم إلى خمسة وثلاثين ألف، وزاد رواتبهم، وأغدق عليهم الهبات والهدايا[3]، لكنهم أظهروا تمردهم عندما حاول السلطان سليم فتح (تبريز) [4]، فكان يحرم عليهم الزواج طالما يقومون بالخدمة العسكرية[5].

---

[1] - محمود محمد الحويري : **تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى**، ط1، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2002م، ص 202.

[2] - هدى درويش: **الإسلاميون وتركيا العلمانية (نموذج الإمام سليمان حلمي)**، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1418ه، 1998م، ص31.

[3] - محمود محمد الحويري : **المرجع السابق**، ص201.

[4] - سونيا محمد سعيد البنا : **فرقة الانكشارية (نشأتها ودورها في الدولة العثمانية من خلال المصادر التركية)**، ط1، 2006م، ص331.

[5] - محمود محمد الحويري : **المرجع السابق**، ص249.

اهتم سليم الأول بتطوير القوات البرية والبحرية، وأمر القبو دان جعفر بك- أحد قواد البحر- بتودار الصناعة (الترسخانة) التي بساحل قاسم باشا، وأمر بإنشاء عدة سفن ضخمة بين حربية ونقلية حتى جعل قوة الدولة البحرية معادلة لقوة البنادقة واسبانيا معا[1]، ففي معظم الحالات كانت الدول المتجاورة قادرة على تحديد حدودها البحرية، وفي حالات أخرى كانت تتركها غير محدودة[2].

وهكذا أصبح الأسطول العثماني في زمن السلطان* سليم الأول سيد البحر الأبيض المتوسط من الإسكندرية إلى سواحل الشام إلى استانبول التي عدت حاضرة دولة إسلامية واحدة[3].

---

[1] - محمود السيد الدغيم : **أضواء على البحرية الإسلامية العثمانية**، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 1414ه، 1994م، ص393، 394.

[2] - عبد القادر شربال : **البحر الأبيض المتوسط بين السيادة والحرية**، دار هومة، الجزائر، 2009م، ص279.

* أصله في اللغة الحجة، وسمي السلطان بذلك لأنه حجة على الرعية، يجب عليهم الانقياد به. أنظر: مصطفى بركات : **الألقاب والوظائف العثمانية، دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية (من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات 1517م - 1924م)**، دار غريب، القاهرة،2000م، ص33.

كما يعني لقب السلطان سلطة معينة متصلة بمنصب معين. أنظر: وضاح زيتون: **المعجم السياسي**، ط1، دار أسامة، عمان، 2006م، ص52.

[3] - محمود السيد الدغيم: **المرجع السابق**، ص394.

المبحث الثاني: الأوضاع الداخلية عشية اعتلاء سليم الأول العرش

إن ظهور المنازعات الخطيرة بين أبناء السلطان بايزيد الثاني من أجل السلطة والوصول إلى العرش كانت من الأسباب التي أدت إلى فشله في الضغط على الصفويين بصورة حاسمة ومواصلة انتصاراته ، وهو بعد على قيد الحياة[1].

وكان لبايزيد الثاني سنة (886ه-918 ه)،(1481م-1512م) ثمانية أولاد ذكور، توفي منهم خمسة وبقي ثلاثة وهم كركود* وأحمد وسليم، وكان كركود يحب العلم ومجالس العلماء فمقته الانكشارية لأنهم أهل حرب لارزق لهم إلا بها، وكان أحمد محبوبا لدى أعيان الدولة والأمراء، أما سليم فكان رجل حرب وبطش فأحبه الانكشارية وا...روه[2].

وقد عرف أحمد وهو أحب أولاده إليه بأنه إداري قدير، ويحب الناس له، وكان يفضل سياسة أبيه الرامية إلى السلام وتوطيد الحكم، ولذلك حظى بتأييد معظم الإداريين، ولكن الانكشارية كانت تعارضه بشدة بسبب الهزائم العديدة التي قاسوها تحت قيادته في الأناضول، أما الابن الثاني قرقوط فقد تربى في بلاط جده السلطان محمد الفاتح، ودرس العلوم الإنسانية والشعر والموسيقى، الأمر الذي جعل العلماء يفضلونه سلطانا، ولكن قرقوط أظهر موهبة عسكرية محدودة في أثناء الحروب التي خاضتها الدولة ضد " شاه قولو" ، أما ثالث الإخوة الأمير سليم الذي كان أكثر قدرة في شؤون الحرب والقتال، فقد نال تأييد الانكشارية وبكوات الحدود في أوربا.

---

[1] - محمود محمد الحويري : المرجع السابق، ص201.

* في بعض المراجع يذكر باسم كركود وفي مراجع أخرى قرقوط.

[2] - جرجي زيدان : المرجع السابق، ص68.

ويصفه أحد البنادقة في هذه العبارة "أنه أكثر السلاطين قسوة، ولم يكن يحلم إلا بالغزو والحرب" أما المؤرخون العثمانيون فيطلقون عليه "ياوز" أي السلطان الحاد الباتر العنيد، وينظرون إليه على أنه بطل يمثل أروع تمثيل العبقرية العسكرية[1]، كما يطلقون عليه أيضا لقب الغازي*.

طلب الأمير سليم من والده أن ينقل من طرابزون على أساس أنه ظل يحكمها مدة طويلة من ناحية، ولوقوعها في جهة نائية على أقصى الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الأسود من ناحية أخرى، وطلب أن ينقل إلى إحدى السنجقيات في أوربا ورفض بايزيد الثاني طلب ابنه، فجمع سليم قواته واتجه بها إلى أدرنة ليتباحث مع والده الذي كان يقيم وقتذاك هذه المدينة وقبل أن يصلها سليم كان السلطان قد غادرها إلى استانبول، فلحق به سليم وسط حشود عسكرية من الانكشارية، وأصروا على عزل السلطان فورا وتعيين سليم مكان والده، وفي 25 أفريل سنة 1512م تنازل بايزيد عن العرش لابنه سليم، ثم غادر بايزيد استانبول متوجها إلى مسقط رأسه في ديموتيقة، وهكذا قام الانكشارية بالدور الرئيسي في خلع السلطان بايزيد الثاني لأنهم ضاقوا ذرعا بالسياسة السلمية التي اتبعها هذا السلطان في معظم سنوات حكمه، وانتهزوا فرصة الصراع الذي نشب بين أولاد السلطان الثلاثة على العرش، فزجوا بأنفسهم من أجل تحقيق منافع لهم، لأنهم توسموا في سليم الرغبة والمقدرة معا على دفع عجلة الحرب الخارجية واستئناف سياسة التوسع الإقليمي للدولة العثمانية.

وكان السلطان بايزيد الثاني قد عين أحمد حاكما على أماسيا، وعين قرقود حاكما على صاروخان (مانيسا)، وعين سليم حاكما على طرابزون ،وكان لسليم ولد اسمه سليمان (صار بعد ذلك سليمان القانوني)، فعينه جده بايزيد واليا على كافا في بلاد القرم فلم يرضى سليم بمنصبه في طرابزون فتركه وسافر إلى كافا، وبعث إلى أبيه يطلب إليه أن يعينه على ولاية في أوربا، فلم يقبل السلطان بايزيد، وأصر على بقائه في طرابزون، فجاهر سليم

---

[1] - محمود محمد الحويري : المرجع السابق، ص201.

*معناها في اللغة العربية محارب أو مقاتل من كلمة الغزو، ولكن في اللغات الإسلامية كالتركية والفارسية لها معنى خاص وهو المجاهد أو المقاتل في سبيل الله، وهذا الاستعمال ناشيء عن معارك النبي صلى الله عليه وسلم التي تعرف بغزوات الرسول عليه الصلاة والسلام. أنظر: برنارد لويس : استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، تع : سيد رضوان علي، ط2، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، 1402ه، 1982م، ص59.

بالعصيان على والده وزحف بجيش جمعه من قبائل التتر إلى بلاد الروملي، فبعث والده جيشا لإرهابه فلم يتهيب، فلم يرى بايزيد بدا من مراضاته حقنا للدماء، فعينه واليا على مدينتي سمندرية وودين في بلاد البلغار سنة 1511م، فلما علم كركود بنجاح أخيه أحب أن يقتدي به، فانتقل إلى ولاية صاروخان، وتولاها بدون أمر أبيه، ليكون قريبا من القسطنطينية عند الحاجة ، وخرج سليم على أدرنة وأعلن نفسه سلطانا عليها، فجرد والده عليه جندا لمحاربته، وجندا لمحاربة أخيه كركود في آسيا، ففر سليم إلى بلاد القرم، وفر كركود أيضا، فأخذ الانكشارية يناصرون سليما، وألجأوا السلطان إلى العفو عنه، وإعادته إلى ولايته في سمندرية، فلاقاه الانكشارية في أثناء الطريق وحملوه إلى القسطنطينية، وأدخلوه سراي السلطان باحتفال وطلبوا إلى بايزيد أن يتنازل عن الملك لابنه هذا فأطاع وترك القسطنطينية متوجها إلى مسقط رأسه في ديموتيقة، فتوفي في الطريق ويظن أن سليما دس له السم خوفا منه[1].

فبعد أن تنازل بايزيد لابنه سليم عن الحكم بدعم الانكشارية، أرضى السلطان سليم الانكشارية وتوجه إلى آسيا للتخلص من إخوته الذين ينازعونه السلطة أو لايرضون به سلطانا، فأخذ يعمل على تنحية أخيه الأكبر أحمد الذي لايزال يدعي حق ولاية العرش بعد أن عينه والده خليفة له قبل أن يتنازل عن العرش وأيده أعيان الدولة[2].

ولما تولى سليم الأول عرش السلطنة العثمانية أبقى أخاه أحمد في ولايته على أماسيا وصاروخان، فلم يرضى لأخيه سليم بالسلطنة وتأخر عن المبايعة له ، زاعما أنه هو الأحق بها لكونه الأكبر سنا، وأرسل ابنه علاء الدين بعسكر إلى بروسة، فذهب إليه السلطان فولى هاربا بعسكره ثم اهتم بتجهيز جيش لمحاربة السلطان ولما بلغه أن السلطان عين مصطفى بك ابن داوود باشا واليا على أماسيا وصار وخان غضب وهجم بعساكره على مصطفى بك، وقبض عليه ولم يقتله، بل اتخذه وزيرا له، وكتب منشورا في أنحاء المملكة بأنه هو السلطان بحكم السن، فمال إليه أغلب أمراء الأناضول، وصاروا يستهزؤون بمن كان في حزب

---

[1] - جرجي زيدان : **المرجع السابق**، ص68.

[2] - محمود شاكر: **التاريخ الإسلامي(العهد العثماني)**، ج8، ط4، المكتب الإسلامي، بيروت، 1421ه، 2000م، ص97.

السلطان سليم فبلغ ذلك السلطان من علي بك ابن مالقوج، وعلاوة على ذلك مال بعض أمراء الجيش إلى أحمد، فاضطربت أفكار السلطان سليم[1].

فاقتفى أثر أخيه أحمد إلى أنقرة ولم يتمكن من القبض عليه لوجود علاقات بينه وبين الوزير مصطفى باشا الذي كان يخبره بمقاصد السلطان، لكن علم السلطان بهذه الخيانة فقتل الوزير شر قتلة جزاء له وعبرة لغيره[2].

ثم ذهب سليم إلى بورصة ففتحها وضرب على أهلها الجزية الباهظة ولما بلغه ذلك استخلف ولده سليمان وذهب لردع علاء الدين بسبعين ألف مقاتل من البر وسير عمارة في البحر مؤلفة من مائة وخمسين مركبا[3] وقبض على خمسة من أولاد إخوته وقتلهم[4]، وبعدها توجه بكل سرعة إلى صاروخان مقر أخيه كركود ففر منه إلى الجبال وبعد البحث عليه عدة أسابيع قبض عليه[5] وقتله في عام 1513م[6].

ثم أحضر ابنه سليمان من ولاية (كافا) ونصبه قائما مقامه بالأستانة، ثم قتل مصطفى باشا الصدر الأعظم وبعض من الأمراء بتهمة الميل إلى أحمد،وعين أحمد باشا ابن هرسك صدرا أعظم فخاف أحمد، وجمع جيشا من محاربيه وقاتل العساكر العثمانية[7].

وبعد أن تأكدت سيطرة سليم الأول على الحكومة في خلال أشهر قليلة من اعتلائه العرش، كانت المشكلة الصعبة التي واجهته هو التخلص من إخوته بغرض تأمين الدولة، فحاول في البداية استرضائهم فسمح لأخيه قرقوط بالعودة إلى صاروخان (مانيسا) وأعطى لأخيه أحمد حكم قونية ولكن أحمد أراد أكثر من ذلك، وأعلن نفسه سلطانا على الأناضول،

---

[1] - إبراهيم بك حليم: **المصدر السابق**، ص79.

[2] - محمد فريد بك المحامي : **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تح : إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1401ه، 1981م، ص188.

[3] - حضرة عزتلو يوسف بك أصاف : **تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن**، تق، محمد زينهم محمد غرب، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1415ه، 1995م، ص56.

[4] - محمد فريد بك المحامي: **المصدر السابق**، ص188.

[5] - عدنان العطار : **الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط**، ط1، دار وحي القلم، سوريا، 1427ه، 2006م، ص57.

[6] - محمد سهيل طقوش : **العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة (698 – 1343ه/ 1299م – 1924م)**، ط1، دار النفائس، بيروت، 1415ه، 1995م، ص131.

[7] - إبراهيم بك حليم: **المصدر السابق**، ص 79.

وأرسل ابنه الوحيد علاء الدين للاستيلاء على بروسة ليتخذها عاصمة له في منتصف جوان عام 1512م ونتيجة لذلك قرر سليم أن يقوي نفوذه، وذلك بإبعاد كل إخوته وأبنائه، فيما عدا سليمان الذي اختاره خليفة له، على أن ثورة أحمد فاقت وبلغت حدا بعيدا من الخطورة بصورة فاقت ثورة جم ففي 18 جوان استولى علاء الدين على بروسة وبدأ في جمع الضرائب من الأهالي، وعندما علم سليم بذلك عبر الأناضول على رأس جيش كثيف، وهناك حصل على مساعدة ضخمة مكنته من إجبار أخيه أحمد وأتباعه على الهرب إلى قيليقية في صيف سنة 1512م، وسبا يذكر أن بعض أنصار أحمد أشاروا عليه بالحصول على مساعدة الصفويين ضد سليم الأول، ولكن أحمد كان يبغض الشيعة بشدة، وفضل طلب المساعدة من المماليك في مصر بدلا من الصفويين الشيعة، وفي الوقت الذي بدأ أحمد في إجراء المفاوضات مع المماليك من عاصمته المؤقتة في أماسيا، توغل سليم في بلاد الأناضول وقتل كل أبناء إخوته، وقتل كذلك قرقوط وكان قرقوط يكبره بثلاث سنوات وأحب إخوته إليه، وقبل أن يغادر قرقوط استانبول متوجها إلى أنطالية أقسم على عدم مطالبته بالسلطنة في أي وقت من الأوقات، وأراد سليم التأكد من نية أخيه، فطلب إلى الوزراء أن يحرروا رسائل بأسمائهم ترغبه في السلطنة، فرد قرقوط على تلك الرسائل المزيفة بالموافقة ، فما كان من سليم إلا أن ألقى القبض على أخيه، وأعدمه في 17 مارس سنة 1513م، قبل إعدام أحمد ثمانية وثلاثين يوما ولا شك أن الأسلوب العنيف الذي اتبعه سليم في التخلص من كل أقاربه، أدى إلى تخلي أنصار أحمد عنه، وجعله لايحصل على أية مساعدة ، وكان أن شن سليم هجوما ضد أخيه[1]، فانهزم وقتل بالقرب من مدينة يكي شهرفي يوم 17 صفر سنة 919 (24 أفريل سنة 1513م) [2]، وجرى إعدامه بخنقه بالقوس والوتر، وبذلك أكد سليم حكمه، ولم تعد هناك أية عقبات أخرى تقف في طريقه[3].

وسئل السلطان سليم بعد مدة عن قتل أخيه أحمد مع التجائه إليه، فأجاب: بأن أعداء الدولة الخارجين كثيرون، فإذا ذهبت إلى الحرب استولت عليه شياطين الإنس والجن بالغش، فيعمل مثل ماعمل، ويترتب على ذلك إراقة دماء المسلمين، فقتل واحد لإحياء كثيرين أمر

[1] - محمود محمد الحويري : **المرجع السابق**، ص203، 204.
[2] - محمد فريد بك المحامي: **المصدر السابق**، ص188.
[3] - محمود محمد الحويري : **المرجع السابق**، ص204.

واجب، وكان لأحمد ولدان مراد وعلاء الدين فالأول هرب إلى العجم والثاني إلى مصر، ولما عاد السلطان إلى أدرنة، جاء سفراء جميع الدول عدا سفير شاه العجم للتبريك[1] لأنه كان متحزبا لأخيه أحمد فغضب واستشاط السلطان غيظا لأنه كان قد حمى عنده أولاد إخوته وحرض والي مصر على مناهضة الدولة العثمانية[2].

وعندما اطمأن السلطان إلى سلامة الجبهة الداخلية[3] عاد إلى أدرنة حيث عقد معاهدات مع البندقية والمجر وروسيا[4] فاتحا بذلك عهدا جديدا من العلاقات السلمية مع أوروبا لأنه أراد تركيز اهتمامه على الجبهة الشرقية لمواجهة الصفويين والمماليك[5].

وبما أن مطامعه كانت متجهة إلى بلاد الفرس التي كانت أخذت في النمو والارتقاء في عصر ملكها الشاه إسماعيل الشيعي فانه فتح ولاية شيروان* وجعل مركزه مدينة تبرريز** سنة 1501م، وفي سنة 1508 فتح العراق العربي وبلاد خراسان وديار بكر*** سنة 1508م وأرسل أحد قواده فاحتل مدينة بغداد، وفي سنة 1510م ضم إلى أملاكه بلاد فارس وأذربيجان وبذلك امتدت مملكته من الخليج الفارسي إلى بحر الخزر ومن منابع الفرات إلى ماوراء نهر أمودارياً[6].

---

[1] - إبراهيم بك حليم : **المصدر السابق**، ص79.

[2] - حضرة عزتلو يوسف بك أصاف : **المصدر السابق**، ص57.

[3] - محمد سهيل طقوش : **المرجع السابق**، ص132.

[4] - يوسف اليامن الذبس الماروني : **في تاريخ سوريا أيام السلاطين العثمانيين العظام**، ج4، م7، بيروت، 1903م، ص13.

[5] - محمد سهيل طقوش : **المرجع السابق**، ص132.

* ضبطها ياقوت بكسر الشين ونصب الراء وهي في المنطقة الشمالية الغربية من إيران المتاخمة للاتحاد السوفييتي.

** ضبطها ياقوت بكسر التاء وسكون الباء وكسر الراء، وتقع في الشمال الغربي من إيران بالقرب من الحدود التركية.

*** اليوم ولاية من ولايات الأتراك وتقع إلى الشمال من الحدود السورية وفي القديم كانت تطلق على منطقة واسعة مركزها ديار بكر.

[6] - محمد فريد بك المحامي: **المصدر السابق**، ص188، 189.

الفصل الثاني

الامتداد العثماني باتجاه الشرق

المبحث الأول: سياسة السلطان سليم الأول باتجاه الشرق

كانت الدولة العثمانية بحلول القرن السادس عشر تمتد أراضيها من بودا (عاصمة المجر) إلى البصرة جنوبا، ومن بحر قزوين شرقا إلى البحر المتوسط غربا[1].

فمنذ بداية القرن السادس عشر انتقلت الدولة العثمانية في توسعاتها من الغرب الأوروبي إلى الشرق العربي الإسلامي في عهد السلطان سليم الأول[2]، فحدث تحولان عظيمان كان لهما أثر عميق في تطور الدولة العثمانية والمجتمع العثماني، الأول ظهور قوة جديدة في إيران هي سلالة الصفويين* الشيعية والثاني ضم العثمانيين للبلاد العربية، ونتيجة لذلك قامت سياسة هذا السلطان الشرقية على قاعدتين : الأولى: السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب.

الثانية : التوسع على حساب القوى في المشرق، وقرر السلطان سليم الاستيلاء على الطرق التجارية الشمالية مع الهند، ولما كانت الدولة الصفوية تقف في طريقه، فقد قرر القضاء عليها أما القاعدة الثانية فتقوم على اعتبارات مذهبية وسياسية وفكرية، فمن حيث الاعتبارات المذهبية، فقد كان السلطان سليم الأول متخوفا لجهة انتشار الدعاة القزل باش الذين كان يبثهم الشاه في شرق الأناضول لينشروا الدعوة الشيعية بين قبائل التركمان، فخشي من دخول آلاف التركمان في المذهب الشيعي مما يشكل خطرا مباشرا على دولته، كما أقلقه توسعات الصفويين.

ورأى أن الصفويين بعامل الخلاف المذهبي بينهم وبين العثمانيين قد بدؤوا يتحرشون بالعثمانيين من جهة الشرق، فقد دخل الشاه إسماعيل الصفوي ديار بكر، وجعل عاصمته

---

[1] - محمد عادل عبد العزيز: انهيار الخلافة العثمانية وتوابعه على مصر

[2] - عبد الرحيم عبد الرحمان: موسوعة الثقافة التاريخية و الأثرية (إفريقيا وآسيا)، دار الفكر العربي، القاهرة، 2008م، ص34.

* إن أصل هذه السلالة من أذربيجان ، وتنتسب إلى الشيخ إسحاق هذاالاسم صفي الذين أخذت السلالة اسمها السلالة الصفوية. السابق،ص132،133.

تبريز القريبة، وطلب من المماليك التحالف معهم ضد العثمانيين للوقوف في وجه توسعهم[1]، كما ساعد الأمير أحمد ضد والده السلطان بايزيد الثاني، ثم ضد أخيه السلطان سليم، فلما تمكن السلطان من أخيه كان لابد من ضرب من كان يعاونه[2].

ومن حيث الاعتبارات السياسية، فقد كان الأناضول التركي امتدادا طبيعيا للأراضي الإيرانية وأراضي آسيا الوسطى باعتبار أن العنصر التركي ذو الأصول الآسيوية قد سيطر في وقت من الأوقات على مجمل الأراضي من آسيا الوسطى حتى البحر الأبيض المتوسط وأقام دولة واسعة في هذه المناطق، وقد شكل قيام الدولة الصفوية في إيران حاجزا سياسيا قطع الاتصال بين العثمانيين وبين أصولهم الشرقية على الرغم من أن الشاه ظل يمثل آنذاك عالما تركيا آخر لكن باتجاهات مذهبية واجتماعية مختلفة عن العالم التركي العثماني، أما من حيث الاعتبارات الفكرية، ففي الحكم والإدارة، وفي الآداب والفنون ظل السلاجقة والعثمانيون من بعدهم يعتمدون اعتمادا كبيرا على المهاجرين من الشرق لشغل وظائف الحكومة وإدارتها، ومنذ إنشاء الدولة الصفوية في إيران في عام 1502م انقطعت تركيا عن إيران وآسيا الوسطى اللتين أسهمتا في تطورها ونموها الثقافي إلى حد كبير.

وكان التنافس على زعامة العالم الإسلامي قد بلغ آنذاك أشده بين القوى الإسلامية الثلاث العثمانيين والمماليك والصفويين، مما دفع العثمانيين إلى الاصطدام بالصفويين ومن ثم التفتوا نحو المشرق العربي ليصطدموا بالمماليك[3].

فقد برز العثمانيون كقوة إسلامية فتية وكأنهم جاءوا استجابة لنداء تاريخي، لضرورة زمنية اقتضت ظهورهم لحماية الأرض والأمة الإسلامية من هجوم غربي صليبي

---

[1] - محمد سهيل طقوش: **المرجع السابق**،ص134.

[2] - أكمل الدين إحسان أوغلي: **الدولة العثمانية تاريخ و حضارة**، تر: صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ و الفنون و الثقافة الإسلامية، استانبول، 1999م، ص192.

[3] - محمد سهيل طقوش: **المرجع السابق**، ص135- 148 .

استعماري شامل، كان يعد العدة لاكتساح عالم الإسلام مستغلا ضعف قياداته ودوله وتمزقها وعدم امتلاكها القدرات المادية والروحية والبشرية للرد على التحدي الغربي[1].

[1] - عماد الدين خليل: مدخل إلى التاريخ الإسلامي، ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1426ه،2006م، ص88.

المبحث الثاني : الصراع الصفوي العثماني ومعركة جالديران

ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفي الدين إسحاق الأردبيلي (650 – 735ه / 1252م – 1324م)، وتجمع المصادر كلها أنه حتى قيام الدولة الصفوية عام 906ه / 1500م، كان شافعي المذهب ولم يدع أنه ينتسب إلى آل البيت رضوان الله عليهم ولكن الكتب التي دونت في عهد الشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة أو تلك التي كتبت بعده وضعت له نسبا إلى الإمام موسى الكاظم الإمام السابع للشيعة الجعفرية أي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

ويعتز الفرس بالدولة الصفوية اعتزازا كبيرا ويصورونها على أنها حققت حلمهم في الوحدة والسيادة والقومية وأنها أول دولة فارسية تحكم بلادهم بعد استعمار طويل أو حكم أجنبي مستمر منذ الفتح العربي الإسلامي مع أنه لو اتخذنا مايقولون عن نسبهم لقلنا أنهم من أعرق قبيلة عربية وهي قريش وتصبح عروبة الصفويين أمرا لاشك فيه ولامراء، ويكون حكمهم بذلك استمرارا للحكم العربي الإسلامي لبلاد فارس.

وفي عصر الصفويين حولت فارس إلى دولة كل مافيها تركي أو للعناصر التركية حتى ضاع فيها الفرس وأصبحوا غرباء، كما كانت التركية لغة دواوينهم ومجالسهم ولا صحة في انتسابهم إلى آل البيت ولم يعترف بفارسيتهم[1].

أسس الشيخ صفي الدين الدولة الصفوية في إيران في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وعندما تولى إسماعيل الصفوي السلطة (1502م، 1524م)، وحد إيران وأقام دولة قوامها القوة العسكرية والمذهب الشيعي، وجعل مدينة تبريز عاصمتها، وفي سنة 1508م انتزع مدينة بغداد من دولة آلاق قيونلو، وعامل أهل السنة والنصارى في بغداد بقسوة، وعطف على اليهود لأنهم كانوا عينا له، وأعلن المذهب الشيعي مذهبا رسميا للعراق، وخضعت له البصرة والموصل.

[1] - شوقي أبو خليل: **تشالديران: سليم الأول العثماني وإسماعيل الصفوي**، ط1، دار الفكر، دمشق، 1426ه، 2005م،ص13- 15.

حاول الصفويون مد نشاطهم المذهبي والعسكري في آسيا الصغرى، فشعر المسؤولون في استانبول بعظم الخطر الجديد، وأدى ذلك إلى وقوع الصراع بين الدولتين للأسباب التالية :

- مشاكل الحدود وتداخلها بين الدولتين، لقد حاولت الدولتان العثمانية والصفوية القضاء على الإمارات المغولية والتركمانية التي كانت في شمال العراق، مما أدى إلى تداخل الحدود بين الدولتين وتأرجح ولاء الإمارات الحدودية بين الدولتين.
- محاولة الدولة الصفوية نشر الدعوة الشيعية في الأناضول وتحريض الأقليات الشيعية هناك على الثورة ضد الحكم العثماني السني، وقيام إسماعيل الصفوي ببعض المذابح للسكان على الحدود.
- تشجيع الدولة الصفوية بعض الأمراء العثمانيين التمرد على الدولة العثمانية، واستقبالهما لهم.

إزاء هذه المخاطر أجبر سليم الأول أباه بايزيد الثاني على التنازل عن العرش، وأهمل سليم جبهة البلقان، وركز اهتمامه بشؤون دار الإسلام، وأجرى مذابح كثيرة بين شيعة شرقي الأناضول ردا على المذابح السنية في العراق بهدف القضاء على الطابور الخامس الشيعي في بلاده الذي كان عينا للصفويين.

- العداء الشخصي الذي نشأ بين سليم الأول وإسماعيل الصفوي، وتبادلهما الرسائل العنيفة[1].

فبعد أن أخمد السلطان سليم ثورة إخوته وأبنائهم عليه سار إلى محاربة الدولة الصفوية وملكها الشاه إسماعيل الصفوي[2]، وكان المماليك في مصر قد انزعجوا من خطورة التهديد الصفوي لممتلكاتهم في بلاد الشام والحجاز، فعقدوا تحالفا مع العثمانيين ضد إسماعيل في عام 1513م، وبذلك تركوا السلطان سليم طليق اليدين في جمع كل قواه ضد الصفويين،

[1] - محمد عبد الله عودة، إبراهيم ياسين الخطيب: **تاريخ العرب الحديث**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1989م، ص18، 19.

[2] - يوسف الياس الدبس الماروني: **المرجع السابق**، ص13.

دون أن يخشى احتمال الهجوم على جناحه الجنوبي، وقد بدأ سليم بتجهيز جيشه في ربيع عام1514م وكان واحدا من أقوى جيوش عصره من حيث عدد الجنود ونوعية الأسلحة النارية، وكذلك من حيث كفاءة من يستخدمونها، أما قوات الشاه، فهي تضم وحدات فرسان أقل عددا، لكنها فعالة بشكل رهيب،وان كانت بلا مدافع ولا بنادق، وقبل أن يزحف سليم بجيشه تجاه الشرق، قام بذبح آلاف من أتباع القزيلباش في الأناضول[1].

في سنة 920ه خابر الشاه إسماعيل شاه العجم ملك مصر قانصوه الغوري بما مضمونه، أن السلطان سليم أو جروز، وأن الدولة العلية في نمو مدهش، ودولة العجم ومصر مهددتان منها، وأخذ الشاه يستميل كثيرا من العشائر التابعة لنفوذ الدولة العلية، فأخبر أمراء الأناضول السلطان بذلك، فجهز جيشا مركبا من كل صنف مقداره مائة وثمانون ألفا، وأعلن الحرب، وأقام ابنه سليمان بالأستانة مكانه.

وفي أثناء السير أمر الأمراء بدقة ملاحظة العسكر، وباشر ذلك بنفسه ايضا، فرد كثير منهم وأغلبهم من التجار قائلا أنهم لايتحملون أثقال السفر والقتال، وأبقى مائة ألف من أقوياء وشجعان العساكر، فوصل أذربيجان وفتح "باي بوردي" وكتب جوابا للشاه يدعوه إلى الحرب، فلم يقابله الشاه بل رد عليه جوابا بالاستهزاء، لزيادة غضب السلطان وتهوره حتى يصل إلى داخل بلاد العجم ليقطع عليه خط الرجعة، فلما وصل الجواب مع السفير قتله السلطان بقصد إغضاب الشاه ليتعجله بمقابلته بالحرب، ورد جوابه بما يوجب شدة غضبه أيضا، لكن الشاه لم يظهر اهتماما بالمقابلة، فصمم السلطان على الذهاب إلى تبريز.

لكن أمراء العساكر أتعبهم طول السفر، وأثر فيهم تغيير الماء والهواء، فأرادوا إرجاع السلطان عن هذا التصميم فلم يقبل فحركوا بعض العساكر للعصيان فهجموا على خيمة السلطان، فخرج من الخيمة ونادى بينهم أنه لايمكن الرجوع بغير حرب مع العدو، وكل من يشعر منكم في نفسه بالجبن فليرجع وأما أنا فلا بد أن أحارب العدو ولو وحدي، فلما

[1] - محمود محمد الحويري: المرجع السابق، ص204، 205.

رأوا منه هذه الجسارة الهائلة اتحدوا على السفر بكل غيرة ونشاط، فساروا حتى وصلوا إلى جبل"جالديران"* ونصبوا به الخيام، وعملوا الاستحكامات اللازمة. وأرسل للشاه جوابا بألفاظ توبيخية محرضة على المقابلة للحرب.

ثم بلغه أن الشاه آت بجيشه فرتب عساكره صفوفا، وجعل سنان باشا عسكر الأناضول في الجناح الأيمن، وحسين باشا عسكر روملي على الجناح الأيسر، وهو ووزراؤه في القلب.

والينكيجريين في الوسط فنزلوا من الجبل إلى الوادي بهذه الهيئة ، أما الشاه إسماعيل فانه رتب عسكره صفوفا أيضا، فجعل محمد خان والي ديار بكر وبغداد ومعه بعض أمراء على الجناح الأيمن أمام عساكر الأناضول، وآخرين على الجناح الأيسر أمام عساكر روملي، وهو في الوسط بأربعين ألفا خيالة[1].

فمنذ مطلع عهد السلطان سليم (1512م – 1520م) تأزمت العلاقات الصفوية العثمانية نتيجة لأن فارس أصبحت ملجأ للفارين من وجه حكم السلطان سليم، ولمحاولة الصفويين بث دعوتهم الشيعية في الأناضول، والاعتماد على الأقليات الصفوية المنتشرة هناك للقيام بثورة ضد الحكم العثماني السني، وتأزمت الأمور إلى درجة أن أعد السلطان سليم جيوشه وأعلن عن الحملة في 20 مارس 1514م، وسار الجيش من أسكدار في23 أفريل 1514م ووصل إلى قونية في01 جوان 1514م، واستراح لمدة ثلاثة أيام، جاء السلطان بعد ذلك إلى سيواسي وترك بها قوة، وسار بعد ذلك إلى آرزنجا في 24 جويلية وأرضوم في 05 أوت 1514م، وأحرق كافة المحاصيل، وكثيرا من المساكن التي تقع على الطريق الذي يسلكه، كانت المعدات الثقيلة قد أرسلت عن طريق البحر إلى "طرابزون" ومنها إلى آرزنجان، وصل السلطان في سيره قصبة بايبورت
إلى الجنوب الغربي بمحاذاة نهر رنكمار ثم وصل إ

* اسم سهل يقع في الشمال الغربي لمدينة تبريز، شرق بحيرة وان. أنظر
ص59.

[1] - إبراهيم بك حليم: **المصدر السابق**، ص81.

الصفوي في جالديران منذ مدة، ودخل الجيش العثماني يوم 22 أوت 1514م، واجتمع المجلس العسكري العثماني ليلة 22 - 23 أوت[1].

في صباح يوم الأربعاء الثاني من شهر رجب سنة 920ه / 23 أوت 1514م اصطف الجيشان، ويذكر الصفويون أن الشاه إسماعيل كان قد طلب من السلطان سليم ألا يستخدم المدفعية في هذه المعركة، لأن الصفويين لم يكونوا قد أدخلوا الأسلحة النارية في جيشهم حتى ذلك الوقت، ويدعون أن السلطان سليم وعدهم بهذا، مع أن العثمانيين كان قتالهم اعتمادا على فرسانهم ومدفعيتهم الحديثة التي أخفوها في مؤخرة الجيش.

ويعد طلب الشاه إسماعيل هذا اعترافا معلنا قبل بدء المعركة، أن تسليح جيش العثمانيين أفضل وأقوى وليس من حق قائد سار إلى القتال بكامل رغبته وتعاليه وتهديده له بقطع رأسه وإرساله إياه إلى ملك البرتغال، أن يشترط على خصمه ألا يستعمل سلاحا أحضره معه.

فلما دارت المعركة، ضغط الصفويون على العثمانيين، وأجبروهم على التقهقر في بعض المواقع، ونجح الشاه في كسر الجناح الأيسر لجيش العثمانيين المؤلف من عساكر الروملي، فطلب الصدر الأعظم من السلطان سليم أن يأمر بإطلاق المدفعية، فقال له السلطان: لقد أقسمت على عدم إطلاقها، فقال الصدر الأعظم: أنت اقسمت ولكنني لم أقسم ثم أمر بإطلاق المدفعية على جيش الصفويين.

في أول دفعة من نيران المدفعية العثمانية قتل عشرون ألف عثماني، وسبعة آلاف قزلباش صفوي، وذلك لاختلاط الجيشين في القتال بالسيوف والرماح.

وقد قتل وتفرق أغلب قادة وجيش القزلباشية، ووقع كثير منهم في الأسر وظل الشاه إسماعيل يعدو في ميدان المعركة بفرسه يحاول جمع شتات جيشه، واستطاع إنقاذ بعضهم من حصار العثمانيين، ومنهم قائده وشقيق زوجته (دورمش خان استاجلو) ومعه نحو أربع مئة أوخمس مئة مقاتل، وقال له عد إلى تبريز لأنني أحاول إنقاذ من أتمكن من إنقاذهم.

[1] - عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق، ص35.

لقد بددت المدفعية العثمانية شمل الجيش الصفوي، فولى الصفويون الأدبار، حتى كاد الشاه أن يقع أسيرا في قبضة العثمانيين الذين استولوا على خيمته وخزانته.

وقد سيطر العثمانيون على المعركة واستطاعوا الوصول إلى معسكر الصفوية، وحملوا كل ماكان به من سلاح وعتاد، وحاربت زوجة الشاه إسماعيل وهي (تاجلو بيجم استاجلو)، ووضعت قناعا على وجهها وأخذت تقاتل كالرجال، وقد التقى بها الشاه إسماعيل في أثناء محاولاته اليائسة لإنقاذ بعض جنوده المحاصرين، وطلب منها أن تعود إلى تبريز، وحينما عاد إلى تبريز وسأل عنها لم يستدل عليها أحد إذ أنها كانت قد أصيبت ببعض الجراح[1]، وضلت الطريق في الصحراء، إلى أن عثروا عليها بعد ثلاثة أيام، وقد عنفها الشاه إسماعيل وهددها بالقتل إن لم تقسم على عدم الاشتراك في القتال بعد ذلك.

حين يئس الشاه إسماعيل من المعركة، عاد بمفرده متوجها إلى مدينة درجزين في الطريق إلى تبريز، وفي أثناء سيره دخل فرسه في مستنقع موحل، وكان كلما حاول الخروج منه ازداد غوصا فيه، وعندما رأى الشاه شخصا عرف من ملابسه أنه من القزلباشية، فناداه وحين اقترب تبين أنه سائسه الخاص، فطلب منه أن يلقي له حبلا، فتناول الشاه الحبل وربطه في وسطه، فلما خرج الشاه من الوحل ركب حصان سائسه وانطلق، واستطاع السائس أن ينقذ فرس الشاه من الوحل، وقد كافأه الشاه على هذا بأن منحه ولاية (داراب جرد)[2].

وبهذا انتصر سليم الأول على الشاه إسماعيل الصفوي في معركة تشالديران[3].

ولم يستطع تتبع آثاره لأن الجيش رفض الاستمرار في الحرب لبرودة المنطقة، فعاد السلطان أدراجه وحين وصل إلى عاصمته تبريز[4] أمر بإعدام قواد الجيش الذين كانوا سببا في عدم تقدم الجيوش ضد الصفويين ليكونوا عبرة لما بعد، أما بقية جيشه فانه احتل ماردين وأورفة والرقة والموصل وألحقها بدولته ودانت له قبائل الكرد، وحين تم له تذليل الجناح الشرقي

---

[1] - شوقي أبو خليل: **المرجع السابق**، ص59 – 63.

[2] - شوقي أبو خليل: **المرجع السابق**، ص63، 64.

[3] - خليل اينالجيك: **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية**، تر: عبد اللطيف الحارس، م1، دار المدار الإسلامي، بيروت، ص591.

[4] - محمد التنوخي: **بلاد الشام أيام العهد العثماني**، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1425ه، 2004م، ص32.

لدولته بدأ يستعد لغزو الشام ومصر، لأن سلطانهما قانصوه الغوري كان قد تحالف مع الشاه إسماعيل لمحاربته[1].

وبعد أن استولى سليم على تبريز أرسل الآلاف من تجارها الكبار والصناع والعلماء إلى استانبول، غير أن سليم قرر مغادرة المدينة خوفا من عدم توفير المؤن اللازمة لجيشه قبل أن يأتي فصل الشتاء، وتراجع إلى قره باغ في القوقاز، وهو المكان المفضل للقبائل الرعوية لجنكيز خان وتيمورلنك، على أمل الرجوع في العام التالي لاستكمال غزو إيران، ولم يلبث الشاه إسماعيل أن استرجع تبريز مرة أخرى، في الوقت الذي أرغمت مشاكل التموين وهبوط الروح المعنوية في جيش سليم على سحب جيشه، والعودة إلى الأناضول، بعد أن أودى هجوم الشتاء القارص بحياة الآلاف من جنده، وقد انسحب سليم راجعا في أكتوبر سنة 1514م، بعد أن تأكد أنه سوف لايكون قادرا على العودة لمحاربة الصفويين إلا في الربيع وفقا لما خططه، وفي أثناء تراجعه أخذ السباهية الإقطاعيون يعودون إلى أراضيهم.

وأخيرا وصل سليم الأول إلى أماسيا بآسيا الصغرى في 24 نوفمبر سنة 1514م، وأعاد معظم الانكشارية إلى استانبول لقضاء فصل الشتاء تجنبا لنشوب منازعات فيما بينهم وفي تلك الأثناء أتى وفد من الشاه إسماعيل الصفوي لعرض اقتراحات السلام على السلطان، ولكن الأخير رفض عرض إسماعيل ووضع الوفد في السجن، وعندما سمع الانكشارية الذين تخلفوا في أماسيا بما حدث من السلطان، ثاروا في 22 فيفري سنة 1515م، فعاملهم السلطان معاملة قاسية، وعزل الوزير الأعظم أحمد باشا وأعدمه في 15 مارس من نفس العام، بسبب فشله في إحكام قبضته على الانكشارية، والحفاظ عليها منضبطة وعلى أهبة الاستعداد.

وعلى الرغم من أن الشاه إسماعيل الصفوي استرجع تبريز وأذربيجان، وقللوا الضغط الصفوي في تلك المناطق، وقد سبقت الإشارة إلى أن إسماعيل تجنب القتال مع العثمانيين، وفي خلال بقية القرن السادس عشر وشطرا كبيرا من القرن السابع عشر، لجأ

[1] - محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ج5، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1404ه، 1984م، ص361.

الصفويون في حروبهم مع أعدائهم إلى أسلوب إتلاف الأرض، واعتمدوا على سوء الطقس ونقص المؤن، وإجبار العدو على التخلي عن زحفه، ومما يجدر ذكره أن موقعة جالديران جعلت إسماعيل يفقد نفوذه، وأدت إلى قيام المنازعات بين المجموعات القبلية المختلفة حول السلطة، واستمرت تلك المنازعات في عهد ابنه وخليفته طهماسب، وأصبح من الصعب على الصفويين أن يركزوا دعايتهم للمذهب الشيعي في الأناضول.

ولتقوية النفوذ العثماني في شرق الأناضول، أنشأ السلطان سليم ولاية حدودية أسند قيادتها إلى بييك محمد باشا، وعهد إليه سليم بسحق المساندين المتبقين للصوفيين، وغزو المناطق الباقية الواقعة خارج السيطرة العثمانية، فاستولت حملة ضخمة على قلعة كماخ الواقعة على حافة تطل على نهر الفرات بالقرب من آرزنجان، حيث اعتاد القزلباش تهديد المواصلات بين سيواس وأرضوم، وقد أدت الأعمال الحربية التي قام بها سليم للاستيلاء على ماتبقى من الأناضول، إلى تحالف حاكم إمارة دلغادر والمماليك والصفويين ضده، ولكن أيا منهم لم يجرؤ على رفع السيف علنا في وجه سليم، الأمر الذي جعله يقضي على المتحالفين ضده الواحد بعد الآخر، وقد بدأ سليم حملته بالقضاء على إمارة دلغادر، حيث ألقى هزيمة ساحقة بجيشها في تورنا داغ في 12 جوان عام 1515م، وأعدم أعضاء الأسرة المالكة، وبذلك سيطر سليم على قيليقية، وتأهب لمواجهة المماليك، ثم تقدم سليم صوب كردستان، وهناك أعلن زعماء الأكراد ولاءهم له، فسمح لهم بالتمتع بالاستقلال الذاتي، في نظير أن يقدموا له المساعدة المالية، والحربية من ناحية، وأن ينشروا الدعاية العثمانية والمذهب السني في أنحاء منطقة كردستان[1].

وعلى الصعيد الاقتصادي، فقد كان لضم مناطق شرقي الأناضول أهمية عظيمة للدولة العثمانية، حيث أصبحت منذ ذلك الحين تسيطر سيطرة تامة على طرق التجارة الدولية التي تأتي بحرير إيران وغيره من منتجات الشرق الأخرى، من تبريز إلى حلب

[1] - محمود محمد الحويري: المرجع السابق، ص206، 207.

وبروسة، الأمر الذي عاد بدخل عظيم على الخزينة العثمانية، وأخيرا سيطر السلطان سليم على وصول المماليك لمصادر الرقيق الرئيسية في القوقاز من ناحية أخرى[1].

نتائج معركة تشالديران :

- انتصر السلطان سليم الأول على الصفويين في معركة جالديران الشهيرة عام 1514م[2]، وحققت الدولة العثمانية في حربها ضد الدولة الصفوية وفي فتوحاتها في العالم العربي نجاحا كبيرا من الناحية الدينية المذهبية، فقد استأصلت الشيعة من الأناضول ومنعت زحف المذهب الشيعي على الشرق العربي الآسيوي وعلى مصر.
- أسفرت المعركة عن سيطرة العثمانيين على الأناضول الشرقية والجنوبية باستثناء القسم الواقع تحت السيطرة المملوكية، وأخذ الأمراء الأكراد السنيون الذين كانوا تحت الحكم الشيعي ينضمون إلى العثمانيين، كما أخمدت الشكلة الصفوية مدة عشرين عاما تقريبا، ذلك أن الضربة التي تلقتها هذه الدولة لم تكن قاضية وتعذر على العثمانيين أن يسقطوا الحكم الصفوي، وظلت إيران على تشيعها[3].
- استيلاء العثمانيين على شمال العراق وديار بكر وأجزاء من أذربيجان[4].
- تأمين حدود العثمانيين الشرقية مع إيران.
- توازن قوى السنة والشيعة في العراق، واحتفاظ الدولة العثمانية بمذهبها السني في آسيا الصغرى.
- تأزم العلاقات بين الدولة العثمانية ودولة المماليك كما سنرى.

---

[1] - محمود محمد الحويري: **المرجع السابق**، ص208.

[2] - محمد عبد العاطي: **تركيا بين تحديات الداخل ورهانات الخارج**، ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1431ه، 2010م، ص53.

[3] - عبد العزيز محمد الشناوي: **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2004م، ص36.

[4] - موفق بني المرجة: **محوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية**، مؤسسة صقر الخليج، الكويت، ص72.

- شعور الدولة العثمانية بمسؤوليتها تجاه العالم الإسلامي السني، وتطلعها لاحتلال العراق لإنقاذه من خطر الصفويين[1].
- إن نتائج تشالديران كانت مخيبة لآمال الانكشارية الذين اقترحوا على السلطان سليم بعد المعركة أن يقضوا الشتاء في كراباغ بفعل الحالة الصعبة إلي كان يمر بها، وهكذا بدأت حلقة جديدة من تطورات الموقف بعد السيطرة على تبريز والانتصار على قوات الشاه، وان امتدادات السلطان سليم اللاحقة إنما انطلقت كنتائج عامة حفلت بها هذه الحرب[2].
- لم يحقق الجيش العثماني أهدافا مباشرة بعد انتصاره في جالديران، إذ لم يضع هذا الانتصار نهاية حاسمة للحرب مع الصفويين، لم يوقفهم عند حدهم، ولم يضع حدا لنشاطهم العدائي ضد الدولة العثمانية،ولكن السلطان سليم استولى في عودته على شمال العراق[3]، وهاجم سليم الأول إمارة ذي القادر[4] ثم عاد إلى استانبول ليعد العدة لقتال المماليك الذين عملوا على خيانته في سلوكهم أثناء حربه مع الشاه فرغم إعلان المماليك حيادهم حين دعاهم سليم للاتفاق معه ضد الشاه إسماعيل، بعثوا بجنودهم ليقطعوا خطوط الإمداد المتجهة إلى الجيش العثماني عبر الأراضي المملوكية في شمال حلب[5].
- كانت النتيجة التي خرج بها سليم الأول من معركة جالديران على غير ماكان يتوقع السلطان قانصوه الغوري، الذي كان يود أن يكون له دور الوسيط بينهما ليوقف الحرب ويوجه السياسات العامة في المنطقة لمصلحة الحكم المملوكي في مصر والشام والحجاز واليمن[6].

---

[1] - محمد عبد الله عودة، إبراهيم ياسين الخطيب: **المرجع السابق**، ص19.

[2] - محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص144.

[3] - محمد عبد اللطيف هريدي: **الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا**، ط1، دار الصحوة، القاهرة، 1408ه، 1987م، ص53.

[4] - محمد نور الدين: **موسوعة شرطيوة**، التركمان في التاريخ، ص3.

[5] - **محمد عبد اللطيف هريدي، المرجع السابق**، ص53.

[6] - عرب حسين دعكور: **تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضارتهم**، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 2011م، ص449، 450.

والحقيقة لم تكن موقعة جالديران إلا حافزا على سرعة قيام السلطان سليم بفتح مصر والشام فقد كانت نفسه تتوق إلى ذلك للأسباب التالية :

1 / تأكيد زعامة الدولة العثمانية للعالم الإسلامي ولاسيما عند دخول الأراضي المقدسة في حوزتها.

2 / حماية ظهر الجيش العثماني من ناحية الغرب، كذا تأمين خطوط الإمداد والتموين عبر سواحل البحر الأبيض المتوسط.

3 / الإبقاع بالبرتغاليين في مياه البحر الأحمر لاسيما بعد أن استفحل خطرهم نتيجة عدم وجود جبهة إسلامية متماسكة، بل أنهم تسربوا إلى الخليج العربي بدعوة من الصفويين لضرب الدولة العثمانية من الجنوب[1].

إن الصراع حول زعامة العالم الإسلامي ، متسترا بإواء المذهبية حيث برزت الدولة الصفوية في إيران وكأنها حامية للشيعة والدولة العثمانية في الأستانة وكأنها حامية للسنة، وتأكد هذا الصراع حول الزعامة بمواجهة الدولة العثمانية السنية لدولة المماليك السنية أيضا[2].

[1] - محمد عبد اللطيف هريدي: المرجع السابق، ص54.

[2] - سوزي حمود: **الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك وصراعهم حول السلطة في المشرق العربي (362- 923ه / 973- 1517م)**، تق ومرا: عصام شبارو، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1431ه، 2010م، ص109.

وقد أثار تبني الصفويين للمذهب الشيعي بصورة رسمية قلق الدولتين، زيادة على محاولة الشاه إسماعيل التحالف مع الأوروبيين ضد الدولة العثمانية[1].

الأحداث العسكرية بعد تشالديران :

استغل السلطان سليم الأول انتصاره في تشالديران فنظم حملة مطاردة بعد ثمانية أيام من الاستراحة مقتفيا أثر الشاه حتى وصل إلى نهر الراس، إلا أن امتناع الانكشارية عن التقدم بفعل اشتداد البرد وتناقص المؤونة أجبره على العودة إلى بلاده حيث قضى فصل الشتاء في مدينة أماسيا التي أصبحت قاعدة للتحركات العسكرية ومراكز للسلطات خلال الفترة التي أعقبت تشالديران، والحقيقة أن السلطان عزم على التوغل في عمق الأراضي الإيرانية إلا أنه لم يفلح، فبالإضافة إلى المعارضة إلي أبداها الانكشارية فان ظروفه بشكل عام والحالة التي كان يمر بها جيشه كانت صعبة إذ أن المؤن قد أخذت في النفاذ واشتد الغلاء بفعل إقدام السلطان قانصوه الغوري على منع مرور المؤن والذخيرة عن طريق حلب، كما أن الشاه عمد قبل انسحابه إلى إحراق مالديه من حبوب ومؤن وبات الجيش العثماني متعبا بعد أن خسر في تشالديران بعض قادته.

نتيجة لهذه الظروف التي وجد نفسه فيها فقد بدل إستراتيجيته السياسية والقتالية، وربما أدرك أن الانهيار الصفوي سيأتي بعد فرض حصار اقتصادي شديد على إيران ولتحقيق ذلك لابد من ضم بلاد الجزيرة وبلاد الشام وسد مسالك المشرق العربي بوجه الصادرات الإيرانية ووارداتها مع الموانئ الأوروبية.

وهكذا بدأت مرحلة أخرى من الصراع مع الصفويين بعد تشالديران تقضي بضم أرمينيا والكرج وكردستان وبلاد الجزيرة وبلاد الشام إلى الدولة العثمانية لتنفيذ إحكام الطوق على الشاه من الشمال والغرب والجنوب[2].

---

[1] - الغالي غربي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي (1288م- 1916م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص58.

[2] - محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص145.

السلطان سليم الأول في القسطنطينية :

تمثل عودة السلطان العثماني سليم الأول إلى القسطنطينية عسكريا الاطمئنان على قدرة قادته لإتمام الفتوحات الأخرى بمفردهم دون الحاجة إلى وجود السلطان شخصيا على رأس الجيوش كما أراد أن يلقن الانكشارية درسا في الطاعة بعد أن مارسوا العصيان على أوامره بالهجوم على قلعة كوماش الشهيرة وتحججهم بالبرد ونقص المؤونة واضطراره للرجوع إلى آسيا الصغرى حتى حلول فصل الربيع، فقد قام وبعد وصوله إلى القسطنطينية بتنفيذ إجراءات صارمة ضد الانكشارية منعا لتعاظم نفوذهم وهو الأدرى بقوتهم وتأثيرها على حياة السلاطين.

فقد أمر بقتل عدد كثير من ضباط الانكشارية الذين كانوا السبب المباشر في الامتناع عن التقدم في بلاد فارس كما أمر بقتل قاضي عسكر هذه المجموعة واسمه جعفر جلبي لأنه كان أكبر المحرضين لهذا العصيان[1].

وتوغلت الجيوش العثمانية في عام 1516م في شمالي العراق وسيطرت على ديار بكر والرها وماردين وحاصر كافا والرقة والموصل، وبذلك أضحت مفاتيح العراق الشمالية في أيدي العثمانيين كما أضحى السلطان سليم الأول سلطان العراقيين عندما أعلن صاحب بغداد الولاء له.

وبتلك الحرب الناجحة دخل في المجال العثماني السكان العرب القاطنين في الفرات الأوسط وأصبح للدولة العثمانية موطئ قدم في المشرق العربي.

كانت الضربة قاسية على الشاه لكنها لم تكن قاضية وبالرغم من إضعاف الطوق الصفوي والقضاء على القوى المحلية التي أقامها في وجه العثمانيين، فانه استطاع أن يستعيد قوته ويعيد تنظيم بناء جيشه ودولته مما سيكون له انعكاسات على العلاقات العثمانية الصفوية في المستقبل[2].

---

[1] - وديع أبو زيدون: تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، ط1، الأهلية، 2003م، ص79.

[2] - محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص146.

وبتلك الحرب الناجحة دخل في المجال العثماني السكان العرب القاطنين في الفرات الأوسط وأصبح للدولة العثمانية موطئ قدم في المشرق العربي.

كانت الضربة قاسية على الشاه لكنها لم تكن قاضية وبالرغم من إضعاف الطوق الصفوي والقضاء على القوى المحلية التي أقامها في وجه العثمانيين، فانه استطاع أن يستعيد قوته ويعيد تنظيم بناء جيشه ودولته مما سيكون له انعكاسات على العلاقات العثمانية الصفوية في المستقبل[1].

[1] - محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص146.

المبحث الثالث: العلاقات العثمانية المملوكية

منذ نشأة الإمارة العثمانية أواخر القرن الثالث عشر في شمال غرب الأناضول واتساع رقعتها تدريجيا اتسمت علاقتها بالود مع الدولة المملوكية وتبادل سلاطينهما الهدايا والتهاني في المناسبات المختلفة ولكن في القرن الخامس عشر تاخمت حدود الدولة العثمانية حدود الدولة المملوكية في الشام مما أوجد احتمال التصادم بينهما ، علاوة على أن خروج العثمانيين إلى البحر المتوسط جعل احتمال التصادم أمرا مؤكدا بسبب سيطرة المماليك النسبية في هذا البحر .

إن العلاقات العثمانية المملوكية تأرجحت بين التعاون والنزاع فمع الأخطار ظهر الاتجاه نحو التعاون ومن ذلك إغارة تيمورلنك علي العراق وأطراف الدولة المملوكية ووصوله إلى الرها عام 1387م وتخريبها، ثم تقدم إلى ملطية الخاضعة للسلطنة المملوكية مما جعل أمير سيواس بآسيا الصغرى يطلب من السلطان المملوكي برقوق (1382م – 1396م)[1] والسلطان العثماني بايزيد الأول (1389م – 1402م)[2] مساعدتهما ضد هذا الخطر المشترك ومن أجل ذلك تمكن السلطان المملوكي من تكوين جبهة تضم الدولة المملوكية والدولة العثمانية تقفان في مواجهة هذا الخطر المشترك.

غير أن هذا الموقف تغير بعد وفاة السلطان برقوق حين استولى السلطان بايزيد الأول على ملطية عام 1399م، ثم هزيمة بايزيد في أنقرة وأسره عام 1402م مما جعل السلطان فرج بن برقوق (1396م – 1412م) يعدل عن فكرة التحالف الدائم بين الدولتين.

---

[1] - إسماعيل أحمد ياغي: **العالم العربي في التاريخ الحديث**، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1418ه، 1997، ص32، 33.

[2] - Percy Kemp: **Territoires D'islam**, La Bibliothèque Arabe Sindbad, Paris, 1982, P 139.

ولابد أن العثمانيين قد شعروا بالقلق نتيجة استيلاء المماليك في عهد الأشرف برسباي (1422م – 1438م) على جزيرة قبرص عام 1429م ومع ذلك فان أنباء انتصارات العثمانيين في أوروبا كانت تقابل بابتهاج وسرور في مصر باعتبارها انتصارات للإسلام[1].

I. مراحل العلاقات بين العثمانيين والمماليك :

كانت علاقة الدولة العثمانية بالبلاد العربية حتى عام 1453م علاقة مجاملة ومؤازرة عن طريق المراسلة وتبادل الهدايا والوفود، فقد مرت علاقتهما بمرحلتين :

1 / مرحلة المؤازرة والمجاملة:

وتبدأ هذه المرحلة أواخر القرن الخامس عشر عندما فتح السلطان محمد الثاني القسطنطينية عام 1453م، أرسل الأشرف اينال رسولا إلى السلطان محمد الفاتح يهنئه بهذا الانتصار كما قدم السلطان بايزيد الثاني المساعدات للمماليك حين تفاقم الخطر البرتغالي في البحر الأحمر[2]، وحتى سقوط القسطنطينية في هذا العام كان الحكام العثمانيون يعترفون بالأولوية الدينية والسياسية للمماليك كزعماء للعالم الإسلامي بينما خططوا لأنفسهم دورا متواضعا هو دور البكوات حماة الحدود هذا وقد ظل المماليك ينظرون إلى تحركات العثمانيين كجزء من المسألة الإسلامية العامة، كما أن القاهرة اعتبرت فتح القسطنطينية نصرا للمسلمين.

وفي الوقت الذي حرص فيه العثمانيون على تجميع القوى الإسلامية في الأناضول لمواجهة البيزنطيين والأوروبيين، فقد حرصوا من جهة ثانية على توثيق العلاقات الأخوية الإسلامية مع المراكز الإسلامية الأخرى، ومنذ عهد مراد الأول العثماني أعطوا أهمية خاصة لتوثيق علاقاتهم بدولة المماليك التي كانت تعتبر أقوى زعامة إسلامية آنذاك.

---

[1] - إسماعيل أحمد ياغي : المرجع السابق ، ص 33.

[2] - جميل بيضون ، شحادة الناظور ، علي عكاشة : تاريخ العرب الحديث ، ط1 ، دار الأمل ، 1412ه ، 1991، ص33.

لكن الأوضاع تبدلت تبدلا كليا بعد عام 1453م، إذ في هذه المرحلة كانت الدولة العثمانية قد توسعت في الأناضول والجزيرة شمالا حتى البحر المتوسط جنوبا وجبال طوروس وفي الوقت نفسه كانت دولة المماليك قد استولت على قيليقيا.

ومع حرص العثمانيين على استمرار تعزيز الروابط مع دولة المماليك إلا أن هؤلاء بدأوا يقابلون بشيء من الفتور تنامي العلاقات بين الدولتين بعدما شعروا بتعاظم شعبية العثمانيين بين المسلمين نتيجة فتحهم القسطنطينية ولم يطل الأمر حتى بدأ المماليك يتوجسون خيفة من العثمانيين فتبدلت نظرتهم إليهم من مشاعر الاعتزاز إلى مشاعر الغيرة.

وتمثل أول اختبار علني للتنافس العثماني المملوكي بقضية دبلوماسية في عام 1463م عندما رفض السفير العثماني الانحناء للسلطان المملوكي في القاهرة، وأدى الصراع على الإمارة القرمانية وسيطرة العثمانيين عليها في عام 1464م إلى أول صدام سياسي كبير كما حدد ضم هذه الإمارة إلى الممتلكات العثمانية في عام 1468م بداية لمواجهة واسعة، وتحولت الإمارة الفاصلة بين ممتلكات الفريقين كإمارة رمضان في قيليقيا وإمارة ذي القدر في كباد وكيا إلى ساحة رئيسية للصراع بين الدولتين فسيطرت الدولة العثمانية على الإمارة الأولى في حين استولى المماليك على الإمارة الثانية وبذلك أضحت الدولتان متجاورتين، فكان من الطبيعي أن يحدث بينهما الصدام، وتمكن العثمانيون آنذاك من التحكم بالطرق التجارية وعلى مصادر الخام البالغة الحيوية للمماليك كأخشاب السفن مثلا وبذلوا جميع المحاولات لإضعاف طاقة المماليك العسكرية، كما عرقلوا شراء الفتيان من أسواق البحر الأسود لنقلهم إلى مصر والراجح أن هذا العمل كان أحد الأسباب الرئيسية للنشاط العثماني في شبه جزيرة القرم والقوقاز[1].

ومع تذبذب العلاقات العثمانية المملوكية جرى
القدر أو إمارة ألبستان* التي تقع شمال بلاد الشام وجـ

---

[1] - محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص147- 149.

* سميت هذه الإمارة بألبستان نسبة إلى عاصمتها، وسميت كذلك
منذ حوالي منتصف القرن الرابع عشر. أنظر: إسماعيل أحمد يا

الفرات الأعلى بين مرعش ومنطية وهي أشهر الإمارات التركمانية العديدة التي نشأت في مناطق الثغور بسبب تجمع القبائل التركمانية فيها وكانت هذه القبائل قد اندفعت منذ القرن الحادي عشر في أواسط آسيا بضغط المغول المتجهين غربا نحو مناطق الثغور في آسيا الصغرى وقد تدخل المماليك والعثمانيون في شؤون هذه الإمارة العازلة بين منطقتي نفوذهم فأيد كل منهم أميرا تركمانيا ومارسوا النفوذ من خلاله، ونتج عن هذا اقتتال أفراد الأسرة الحاكمة في إمارة ذي القدر وتأزم في العلاقات المملوكية العثمانية[1].

2 / مرحلة المواجهة العسكرية: وبعود ذلك لعدة أسباب:

ا) ترحيب المماليك "بجم" سنة 1482م عندما نازع شقيقه السلطنة ثم هزم ففر الى مصر لاجئا سياسيا عند السلطان الأشرف قايتباي كما آوى الغوري الأمير قاسم العثماني أحد أبناء الأمير أحمد الذي قتله السلطان سليم واتخذ منه سلطان مصر أداة للتهديد.

ب) تحالف المماليك مع الصفويين في عهد كل من الشاه "إسماعيل الصفوي وقانصوه الغوري" وقد وضعت المحالفة موضع التنفيذ في ربيع عام 1516م عندما جهز السلطان سليم حملة جديدة ضد أحد الأقاليم الصفوية، فعبأ السلطان قانصوه الغوري قواته وبدأ الزحف عبر سوريا.

ج) حشد تحالف مؤلف من إمارة " ذي القادر" التركمانية شمال بلاد الشام، وملك جورجيا بالإضافة إلى المماليك والصفويين.

د) شعور السلطان المملوكي بالضيق الشديد لضم السلطان سليم إمارتي " ذي القادر وألبستان " الفاصلتين بين حدود الدولتين وقتل أميرها علاء الدولة سنة 1515م حليف المماليك.

[1] - إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص33،34.

ه) عدم سماح المماليك للعثمانيين بالسير ضمن أراضي الدولة المملوكية للوصول إلى البرتغال لمنازلتهم خوفا على حكمهم ومصالحهم وخوفا على جيرانهم الذين يعتبرون السماح لدخول العثمانيين أراضي المماليك اعتداء عليهم[1].

ومما زاد العلاقات تأزما إيواء المماليك للثائرين على السلاطين العثمانيين، مثل الأمير بهم ابن السلطان محمد الثاني الذي ثار على أخيه بايزيد الثاني (1481م – 1512م) حين خلف أباه في السلطنة ولما هزم بهم اتجه إلى الشام وانحدر جنوبا حتى بلغ القاهرة عام 1482م لاجئا سياسيا لدى السلطان الأشرف قايتباي (1467م – 1496م) وكان بايزيد ينتظر من سلطان مصر أن يمنعه من الإقامة فيها إلا أن قايتباي أكرم وفادته، فغضب عليه بايزيد وهكذا تطورت العلاقات بين المماليك والعثمانيين، إلا أن القتال لم ينشب بينهم إلا عام 1485م، حين أغارت الجيوش العثمانية فجأة على بلاد الشام واستولت على بعض المواقع التي كان قايتباي قد نازع بايزيد الثاني السلطة عليها وقابل قايتباي عمل السلطان العثماني بالمثل، فأرسل جيشا إلى بلاد الشام أحرز عدة انتصارات واستولى على كثير من الغنائم والأسرى، ولكن الحرب انتهت بإبرام الصلح عام 1491م بين الطرفين لاضطراب أحوال مصر الداخلية وتفشي القحط في البلاد، ولم يرفض بايزيد الصلح حتى يتفرغ لفتح بلغراد واتجهت العلاقات العثمانية المملوكية نحو التحسن في مطلع القرن السادس عشر بسبب تهديد البرتغاليين والصفويين لكل من الدولتين[2].

يبدو أن الدولة العثمانية أحست بواجبها بضرورة الدفاع عن المناطق الإسلامية ، بعد أن لمست عدم قدرة المماليك على مواجهة البرتغاليين اثر هزيمتها في معركة ديوالبحرية سنة 1508م وعدم قدرة الأسطول المملوكي الخروج من البحر الأحمر، مما أدى إلى ضعف الدولة المملوكية وركود تجارتها مع الهند.

أرادت الدولة العثمانية أن تجعل من البحر المتوسط بحيرة عثمانية والسيطرة على الطرق البرية والبحرية التي كانت تربط الشرق بالغرب آنذاك لتكون دعامة اقتصادية

---

[1] - جميل بيضون وآخرون: **المرجع السابق**، ص33، 34.

[2] - إسماعيل أحمد ياغي: **المرجع السابق**، ص34، 35.

ضخمة بزيادة دخل الدولة من الضرائب والمكوس على التجارة العابرة في هذه الطرق التجارية[1].

فقد ترتب على ازدياد الخطر البرتغالي في البحر الأحمر مع ضعف إمكانيات المماليك العسكرية والمالية ، أن طلب السلطان الغوري (1501م – 1516م) العون من العثمانيين ، فأرسل هؤلاء إليه ثلاثين سفينة تحمل ثلاثمائة مدفع وأخشابا ولكن فرسان القديس يوحنا في رودس استولوا عليها ورغم ذلك فقد أمر السلطان بايزيد الثاني أن يرسل إلى الغوري كل مايطلبه لإنشاء الأسطول اللازم هدية له دون أي مقابل وقد وصلت هدية العثمانيين إلى القاهرة في جانفي 1511م،ثم نقلت إلى السويس وكانت عبارة عن ثلاثمائة مدفع وثلاثين ألف سهم وأربعين قنطارا من البارود وألفي مجداف من الخشب، وغير ذلك من المواد اللازمة لصناعة السفن، وأرسل العثمانيون كذلك عددا من ضباط البحرية إلى مصر للاشراف على سفنها، ويبدو أن قراصنة عثمانيين من غربي الأناضول قد استخدموا في الأسطول المملوكي[2].

وقد تنبهت الدولة العثمانية إلى محاولات التعاون بين البرتغاليين والحبشة للاستيلاء على الحجاز، ولذلك بدأت تتطلع الدولة العثمانية إلى احتلال الوطن العربي وبخاصة بعد هزيمة الصفويين في جالديران سنة 1514م.

كانت العلاقات العثمانية المملوكية جديدة في بداية الأمر وكثيرا ماتبادل حكام البلدين الهدايا في المناسبات، كما أن المماليك كانوا يحتفلون عندما ينتصر العثمانيون على أوروبا، ولكن العلاقات بينهما كانت تسوء أحيانا ، فقد تنازع الطرفان حينما استولى المماليك على قبرص عام 1485م وعندما التجأ الأمير العثماني جم منافس السلطان بايزيد على العرش إلى دولة المماليك[3].

[1] - محمد عبد الله عودة، إبراهيم ياسين الخطيب: المرجع السابق، ص23.
[2] - إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ص35.
[3] - محمد عبد الله عودة، إبراهيم ياسين الخطيب: المرجع السابق، ص23.

إن انتصار السلطان سليم على الصفويين في تشالديران، قد أزعج قانصوه الغوري الذي كان يود أن يقوم بدور الوسيط بين العثمانيين والصفويين ليوجه السياسات العامة في المنطقة لصالح الحكم المملوكي، والواقع أن انتصار سليم في تشالديران كان مفاجأة غير متوقعة للمماليك، كان السلطان المملوكي يدرك تماما أن المنتصر من الجانبين سيعمل على تصفية الموقف في المشرق العربي بالاصطدام بالمماليك، ومن ثم كان عليه أن يتخذ موقفا من التطورات السياسية والعسكرية السريعة بتبني أحد الخيارات التالية : - إما أن يقف إلى جانب العثمانيين ويساندهم ضد الصفويين.

- وإما أن يقف إلى جانب الصفويين ويساندهم ضد العثمانيين.
- وإما أن يلتزم جانب الحياد.

انه رأى أن انضمام المماليك إلى جانب العثمانيين يخل بالتوازن وقد يشكلون خطرا عليهم إن هم أرادوا التوسع في المشرق العربي، أما انضمامه إلى الصفويين ضد العثمانيين فكانت تعترضه عدة عقبات منها المذهبية بشكل خاص[1].

وكان الخطر الآخر الذي قرب بين العثمانيين والمماليك في مستهل القرن السادس عشر هو الخطر الصفوي، فقد أثار تبني الصفويين للمذهب الشيعي قلق جيرانهم من عثمانيين ومماليك خاصة وأنهم حاولوا نشره بين القبائل التركمانية في شرقي الأناضول زد على ذلك أن الشاه إسماعيل حاول الاتصال بالأوروبيين للتحالف معهم، فقد عثر المماليك على مكاتبات بينه وبين البنادقة بهذا المعنى مما كان يهدد مصالح العثمانيين والمماليك على السواء.

والواقع أن اتجاه التقارب بين العثمانيين والمماليك لم يستمر طويلا، ويرجع ذلك إلى موقف السلطان الغوري أثناء الحرب التي قامت بين السلطان سليم الأول وبين الشاه إسماعيل الصفوي، والتي انتهت بهزيمة الأخير في جالديران عام 1514م، فقد وقف الغوري موقفا غير ودي من العثمانيين دون أن يقيد هذا الموقف الشاه إسماعيل على الإطلاق، فهو لم

[1] - محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص149، 150.

يلتزم الحيدة التامة بين العثمانيين والصفويين وهو لم يتخذ موقفا عدائيا صريحا من السلطان سليم، وكان في استطاعته لو اتخذ الموقف العدائي أن يتقدم لمساعدة الصفويين وقت توغل الجيش العثماني في الأراضي الفارسية وكان في استطاعة الجيش المملوكي أن يزحف في أثر الجيش العثماني في اتجاه فارس وأن يحصره بين قوتين معاديتين : الجيش الصفوي من الأمام، والجيش المملوكي من الخلف مما يعرض الجيش العثماني لخطر الإبادة، وكان في استطاعة الجيش المملوكي أن يقطع على الجيش العثماني خط الرجعة إلى بلاده، أو أن يتقدم في الأراضي العثمانية والجيش العثماني بعيد عنها، وتكون النتيجة أن هذا الجيش يعجز عن الدفاع عن بلاده وعن الإغارة على فارس ولكن لم يحدث شيء من هذه الخطط العسكرية .

ويفسر بعض المؤرخين عزوف المماليك عن دعم العثمانيين أثناء حربهم ضد الصفويين، بأن المماليك كانوا ضعافا من الناحية العسكرية ويخافون من ازدياد قوة العثمانيين والحقيقة أن المماليك حاولوا أثناء ذلك التفاهم مع الصفويين ، وسواء كان الغوري قد تحالف مع الشاه إسماعيل على أساس أن يقدم كل منهما المساعدة للآخر ضد السلطان سليم حسب الإشاعة التي راجت وقتذاك [1]، أم أن الغوري اكتفى بتأييد شكلي بذله للشاه فقد اعتبر السلطان العثماني موقف السلطان المملوكي عدائيا واتهم سليم السلطات المملوكية بتعرضها لقوافل المؤن العثمانية المتجهة نحو الجبهة الصفوية ، كما اتهم الغوري بإصداره الأوامر إلى الأمير علاء الدولة حاكم إمارة ذي القدر المشمولة بحماية دولة المماليك بمنع تقديم المؤن والأغذية اللازمة للجيش العثماني أثناء توغله في فارس مما أعاق زحفه بعض الوقت ، واشتد غضب السلطان سليم على هذا التصرف من جانب الأمير علاء الدولة وعزم على الانتقام منه.

وفي أثناء عودته من فارس أصدر السلطان سليم أوامره إلى سنان باشا بمعاقبة الأمير علاء الدولة على سلوكه وهكذا قتل علاء الدولة العجوز في المعركة، ومنحت إمارته إلى ابن

[1] - إسماعيل أحمد ياغي، المرجع السابق، ص36.

أخيه علي الذي صحب السلطان سليم في الحملة الفارسية، واعتبر ذلك عملا عدائيا صريحا موجها نحو الدولة المملوكية[1].

وبعد الحرب التي شنها السلطان سليم على الصفويين بدأ يستعد لحرب المماليك الذين تحالفوا مع الصفويين على العثمانيين، والذين يختلف معهم بشأن إمارة ذي القادر على الحدود بين الطرفين والتي قاعدتها مرعش وشجعه على هذه الحرب وجهاء الشام الذين خافوا البرتغاليين ولم يجدوا في المماليك القدرة على المقاومة وبروز العثمانيين كقوة ضخمة اكتسحت أجزاء من أوروبا[2].

ولما علم سلطان المماليك قانصوه الغوري الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين استعداد السلطان سليم لغزو بلاد المماليك أرسل إليه رسولا يعرض عليه وساطته للصلح بين العثمانيين والصفويين غير أن السلطان سليم بطبيعته العسكرية طرد الرسول وأهانه، لأنه قرر الحسم العسكري[3].

كما أعلن العثمانيون أن هدفهم من التحرك صوب الدولة المملوكية، هو حماية الحرمين الشريفين والمدن الإسلامية المقدسة والعالم الإسلامي من هجمات البرتغال، الأمر الذي عجز عن تحقيقه المماليك، وبذلك يكون تحرك العثمانيين ناحية الشرق بهدف الغزو والجهاد حماية لأرض الإسلام[4].

كما أن العلاقات الودية بين الدولة العثمانية والمماليك لم يكتب لها الاستمرار، فبعد أتن تولى السلطان سليم الأول الحكم حدث تغيير كبير في موقف الدولة العثمانية، وغلب على علاقتهما مع الدولتين التوتر[5].

---

[1] - إسماعيل أحمد ياغي: **المرجع نفسه**، ص37.

[2] - محمود شاكر: **المرجع السابق**، ص100.

[3] - محمد فريد بك المحامي: **المصدر السابق**، ص192.

[4] - محمود محمد الحويري: **المرجع السابق**، ص208، 209.

[5] - فاضل مهدي بيات: **الدولة العثمانية في المجال العربي(دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية)**، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م، ص127.

تنافس المماليك والعثمانيون على زعامة العالم الإسلامي، ودعم المذهب السني لمواجهة خطر انتشار المذهب الشيعي، فتوترت العلاقات بينهما وزاد خوف المماليك عندما غزا العثمانيون الأراضي الصفوية عام 1514م فتظاهر قانصوه الغوري بالحياد، وحاول التوسط بين العثمانيين والصفويين إلا أن العثمانيين لم يقبلوا ذلك كما حاول التحالف سرا مع الصفويين فعلم السلطان سليم الأول بذلك.

وفي جوان 1515م قضى العثمانيون على إمارة ذي القادر التركمانية الموالية للمماليك، والواقعة في أعالي الفرات بين الأراضي العثمانية والمملوكية، وذلك لأن أميرها علاء الدين حاول عرقلة الجيش العثماني الزاحف لغزو فارس، وبذلك أصبح العثمانيون يطوقون الممتلكات المملوكية في شمال الشام، فتأزمت العلاقات بين الدولتين وشجع كل طرف منهما الخارجين على الدولة الثانية، فأصبحت الحرب بين الدولتين لامفر منها[1].

[1] - محمد عبد الله عودة، إبراهيم ياسين الخطيب: **المرجع السابق**، ص24.

الفصل الثالث

الضم العثماني لبلاد الشام ومصر وانهيار حكم المماليك

المبحث الأول : ضم العثمانيين بلاد الشام، معركة مرج دابق 1516م

أصبحت الإمبراطورية العثمانية من قوى العالم الكبرى في القرنين السادس عشر والسابع عشر[1]، فأخذ السلاطين العثمانيون يتطلعون نحو الشرق العربي الإسلامي[2].

حيث قام الكثير من المؤرخين بمناقشة الدوافع الحقيقية التي أدت إلى الفتح العثماني لسورية ومصر، فحسب رأي هولت أن مجريات الأحداث فرضت على السلطان سليم الأول غزو مصر أكثر مما فرضت عليه بأن يعمد إلى التخطيط لها كخطوة في بناء الإمبراطورية، ويدعم هذا الرأي المورخ أرنو لد توينبي فهو يرجع دوافع الفتح العثماني للشرق العربي إلى ظهور قوة الصفويين على عهد الشاه إسماعيل الصفوي، كما يرى فريق آخر من المؤرخين أن خروج العثمانيين إلى هذه المناطق كان هدفه حماية الشرق الأدنى الإسلامي من الخطر البرتغالي. كما يعتقد البعض بأن الدولة العثمانية كانت قد بلغت مرحلة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر، وأنه كان عليها في أوائل القرن السادس عشر البحث عن ميادين جديدة للنشاط والتوسع. وفي النهاية أجمع أغلب المؤرخين على أن هذه العوامل جميعها مسؤولة مسؤولية مشتركة عن الاتجاه الشرقي للدولة العثمانية[3].

قرر السلطان سليم الأول تكسير حالة الجمود القائم بين العثمانيين والصفويين بحسم أمر المماليك، هذا عن الجانب العثماني أما عن الجانب المملوكي، فان السلطان الغوري لم يرى مفرا من القتال خاصة وأن قواته ليست بعيدة عن موقع تمركز الجيش العثماني لهذا أمر جيشه بالخروج من مدينة حلب والاستعداد للمواجهة المفروض عليهم[4].

---

[1] - إبراهيم رزقانة : **الجغرافية الإقليمية للعالم الإسلامي (العالم الإسلامي غير العربي)**، دار النهضة العربية، القاهرة، ص16.

[2] - موسى موسى نصر: **صفحات مطوية من تاريخ مصر العثمانية**، مكتبة الأسرة، الإسكندرية، ص11.

[3] - عمر عبد العزيز عمر: **تاريخ المشرق العربي (1516م – 1922م)**، دار النهضة العربية، بيروت، ص88، 89.

[4] - الغالي غربي، المرجع السابق، ص60.

لم ينته السلطان سليم الأول من محاربة الشيعة وفتح ديار بكر والموصل حتى أخذ يستعد لفتح سلطنة مصر لأن سلطانها "قانصوه الغوري" كان قد تحالف مع الشاه إسماعيل لمحاربة الدولة العثمانية، ولما علم سلطان مصر بتأهب السلطان العثماني لمحاربته أرسل إليه رسولا يعرض عليه أن يتوسط بينه وبين العجم لإبرام الصلح، فلم يقبل بل طرد الرسول وأهانه[1].

مهدت الرسائل التي أرسلها السلطان سليم الأول إلى قانصوه الغوري لإقامة الأمراء علاقات مع العثمانيين ومن هؤلاء الأمراء خاير بك أمير أمراء حلب المملوكي، الذي تواطأ سرا مع العثمانيين قبل معركة مرج دابق ، وقدم معلومات مهمة عن الأحوال السياسية والعسكرية والإدارية والمالية للدولة المملوكية إلى العثمانيين[2].

كان قانصوه يحس برغبة سليم الشديدة في دخول البلاد الشامية، فقصد قانصوه حلب متظاهرا بالرغبة في إصلاح ذات البين بين سليم وإسماعيل، لكن السلطان سليم الأول لكثرة جواسيسه بين المماليك، سار بجيشه إلى بلاد الشام لتأديب قانصوه[3].

في الوقت الذي كان السلطان الغوري يجهز استعداداته لمواجهة العثمانيين وصلت رسالة من خاير بك نائب حلب تطمئن السلطان من ناحية العثمانيين، وأن سليم الأول لا يرغب في قتاله وقد تبين بعد ذلك أن خاير بك كان يخون سلطانه وبلاده لحساب العثمانيين وقد بعث بتلك الرسالة ليهدىء أعصاب سيده، ويصرفه عن الاستعداد للحرب.

أتم السلطان الغوري استعداداته وحشد جيوشه في الريدانية – شمالي القاهرة بين المطرية والجبل الأحمر – استعدادا للخروج إلى الشام تحسبا لأية مفاجآت قد تصدر عن العثمانيين، وفي أثناء وجوده بالريدانية وصلت رسالة ثانية من خاير بك نائب حلب ومع تلك الرسالة رسالة من السلطان سليم موجهة إلى السلطان الغوري مليئة بالألفاظ الرقيقة والتواضع، ويقول فيها السلطان سليم: "أنت والدي وأسألك الدعاء"، ويعلق ابن إياس على

[1] - محمد الطاهر سحري: **مختصر تاريخ الدولة العثمانية**، ج1، ط1، مطبعة المعارف، الجزائر، 2008م، ص123.

[2] - فاضل مهدي بيات: **المرجع السابق**، ص130.

[3] - محمد التنوخي : **المرجع السابق**، ص35.

رسالة السلطان العثماني بقوله: "وكان هذا كله حيلا وخداعا من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده، وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد"[1].

أعد السلطان الغوري جيشه وغادر به القاهرة إلى دمشق فدخلها في جمادى الأول 922ه سنة 1516م[2] قام السلطان قانصوه بتعبئة قواته، وبدأ بالزحف عبر بلاد الشام تاركا"طومان باي" أحد القادة الكبار نائبا عنه في القاهرة خلال غيابه[3].

غادر السلطان قانصوه القاهرة في 18 ماي 1516م وجاء إلى سوريا لغرض التفتيش، وكان يصاحبه الخليفة المتوكل وقضاة للمذاهب السنية الأربعة.

كانت الإمبراطورية المملوكية – السورية الثالثة من حيث الأهمية في العالم بعد تركيا وإيران.

حمى المماليك سابقا سورية من المغول والايلخانيين وتيمور بنجاح[4].

وفي جوان وصل غزة وقضى بها خمسة أيام، ثم رحل بعد ذلك إلى دمشق فمكث بها تسعة أيام ، ثم توجه بعدها إلى حمص، فحماة حتى وصل حلب في أوائل حزيران وجعل منها قاعدته الأمامية، وصلت أنباء تحركات الجيش المملوكي إلى القائد العثماني" سنان باشا" الذي كان معسكرا في ألبستان التركمانية (ذي القادر التركمانية) فأرسل بذلك إلى السلطان سليم لاتخاذ الإجراءات العسكرية المناسبة لهذه التهديدات، فقام السلطان بالانضمام إلى قائده سنان باشا على رأس حملة كبيرة.

وكان أمام العثمانيين خياران التجاهل أو المواجهة فاختاروا الخيار الثاني لأن في انتصارهم على المماليك إنهاء لحالة الجمود القائمة بين المماليك والعثمانيين.

---

[1] - محمود محمد الحويري : **مصر في العصور الوسطى (من العصر المسيحي حتى الفتح العثماني)**، ط2، المكتب المصري، القاهرة، 2002م، ص281.

[2] - عبد العزيز سليمان نوار: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، دار الفكر العربي، القاهرة، ص89.

[3] - جميل بيضون وآخرون : **المرجع السابق**، ص35.

[4] - يلماز أوزتونا : **تاريخ الدولة العثمانية**، تر : عدنان محمود سلمان، مرا : محمود الأنصاري، م1، مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، 1988، ص221.

أما السلطان قانصوه فكان وضعه سيئا على الرغم من أنه كان يرى أنه لامفر من القتال، وتمثل هذا الوضع بتخلي السكان المحليين عن المماليك وعدم مساعدتهم، بل أكثر من ذلك استعدادهم للثأر نتيجة الدعاية العثمانية التي وعدتهم بإرساء قواعد العدل، هذا فضلا عن وجود الانقسامات بين القادة الكبار في جيش المماليك (خاير بك حاكم حلب، جانبرد الغزالي حاكم دمشق، وفخر الدين المعني حاكم لبنان) واستعدادهم للتخلص من قانصوه الغوري في سبيل المحافظة على مراكزهم[1].

وزحف الجيش المملوكي ليقاتل الجيش العثماني في مرج دابق القريبة من حلب (1516م) أما الطرف الآخر العثماني كانت مصادر قوته العسكرية في نمو طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر، حيث كان مكونا من انكشارية وسباهية (فرسان) مخلصين بقوة للسلطان العثماني، وكان هذا الجيش من أحسن جيوش العالم حينذاك وزحف به السلطان سليم الأول حتى نزل على مقربة من حلب (1516م) وأصبح على مقربة من معسكر جيش المماليك بقيادة الغوري[2].

في 20 رجب 922ه (19 أوت 1516م) تحرك قانصوه الغوري على رأس جيوشه لملاقاة سليم الأول[3]، وفي اليوم التالي وقف المماليك الجراكسة العثمانيون وجها لوجه في سهل مرج دابق، وهناك أشاع قانصوه الغوري أن جيش العدو يضم في صفوفه المسيحيين وأرمن وشعوبا أخرى بغيضة، وكان قانصوه يهدف بذلك إثارة الكراهية ضد العثمانيين بين صفوف جنده والشاميين المرافقين له، فضلا عن إعطاء تأثير مفاده أن الحرب بينه وبين سليم الأول حرب مقدسة يخوضها المسلمون ضد المسيحيين[4].

---

[1] - جميل بيضون وآخرون : **المرجع السابق**، ص36.

[2] - عبد العزيز سليمان نوار: **المرجع السابق**، ص90.

[3] - مؤلف مجهول: **التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية**، ج3، ط2، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1995م، ص106.

[4] - ابن زنبل الرمال : **أخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني**، تح : عبد المنعم عامر، اش : عبد الرحمان عبد الله الشيخ، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م، ص22.

وفي يوم25 رجب عام 922ه (24 أوت 1516م) استعد العثمانيون لخوض معركة تعتبر واحدة من أهم المعارك التي خاضوها في تاريخهم[1]، ذلك أنهم لو حققوا انتصارا على المماليك، سيرفعون أيديهم عن حراسة الجزء الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى، بالإضافة إلى أن انتصارهم سيمنحهم مكانة عالية في بقية البلاد الإسلامية الأخرى.

وأخذ السلطان الغوري يرتب عسكره بنفسه، فكان مكانه في القلب، وحوله أربعون مصحفا شريفا في أكياس من الحرير الأصفر يحملها جماعة من الأشراف، ومن حوله جماعة من الصوفية والأشراف ومعهم أعلامهم، وتولى قيادة ميمنة الجيش سيباي نائب الشام، و الميسر ة خاير بك نائب حلب[2].

لكن هزم الغوري[3] بسبب وقوع الخلاف بين فرق جيشه المؤلف من المماليك وساعدت المدافع العثمانيين على النصر وقتل الغوري في أثناء انهزام الجيش وسنه ثمانون سنة، وكان ذلك في يوم الأحد 25 رجب سنة 922ه (24 أوت سنة 1516م)[4].

ودخل السلطان سليم حلب، ثم حماة ودمشق، حيث التقى بالعلماء وأحسن إليهم بالعطاءات وأمر بترميم الجامع الأموي الذي تهدم بالزلازل، وفي دمشق لقب سليم بخادم الحرمين الشريفين، وكان هذا اللقب أول من لقب به السلطان قانصوه الغوري بعد تحصين جدة ضد البرتغاليين[5].

بعد انتصار سليم الأول انتصارا كبيرا في مرج دابق عرض على طومان باي الذي تولى السلطنة بعد الغوري أن يعلن خضوعه للسلطنة العثمانية في مقابل أن يسند إليه

---

[1] - فؤاد السيد، حسن حيدر : **أعظم أحداث العالم من تاريخ ماقبل الميلاد حتى نهاية 2003م**، ط1، دار المناهل، بيروت، 1425ه، 2004م، ص100.

[2] - محمود محمد الحويري : **المرجع السابق**، ص281.

[3] - محمود السيد: **تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص157.

[4] - محمد فريد بك المحامي: **المصدر السابق**، ص192.

[5] - عدنان العطار: **المرجع السابق**، ص58.

السلطان سليم حكم مصر، ولكن طومان باي لم يقبل، واضطر السلطان سليم إلى أن ينقل الحرب إلى مصر[1].

انتصر العثمانيون على المماليك في معركة مرج دابق شمال غربي مدينة حلب السورية، وأصبحت سوريا التي فتحت في 1516م مجموعة من الولايات العثمانية الخاضعة للحكم المركزي دون أن يتخلل ذلك فترة انتقالية يمتلك فيها السلطة حاكم تابع[2].

كما يفيد المؤرخ العربي الشهير ابن فضل الله العامري بأن السلاطين الأتراك كانوا يستندون إلى عنصر محارب قوي وقلاع صامدة وجبال شاهقة وهم أقوياء بأسلحتهم وعددهم[3]، كما أن الأتراك حكموا سوريا من القرن السادس عشر حتى عام 1918م، سوى فترات قصيرة مثل فترة نابليون، وحكم محمد علي في القرن التاسع عشر[4].

أسباب انتصار العثمانيين في معركة مرج دابق :

بعد أن ذهب السلطان الغوري بقواته عبر بلاد الشام نحو حلب سنة 922ه / 1516م ليقطع الطريق على السلطان سليم الأول السائر لمحاربة الشاه الصفوي مرة أخرى، لكنه اصطدم مع جيش المماليك وهو في مرج دابق شمالي الشام[5]، وانتصر سليم الأول في المعركة ويرجع ذلك إلى :

- الجيوش العثمانية جيدة التسليح والتجهيز وطبقت الأساليب التكتيكية الحديثة.
- لجأت هذه الجيوش إلى تدعيم مواقعها بواسطة قلاع متحركة، تشكلت من عربات مربوطة بعضها بالبعض الآخر.

---

[1] - عبد العزيز سليمان نوار: **المرجع السابق**، ص92.

[2] - ثريا فاروقي: **الدولة العثمانية والعالم المحيط بها**: تر: حاتم الطحاوي، مرا: عمر الأيوبي، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2008م، ص151.

[3] - يلماز أوزتونا: **مدخل إلى التاريخ التركي**، تر: أرشد الهرمزي، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 1426ه، 2005م، ص384.

[4] - محمد صادق صبور: **الصراع في الشرق الأوسط والعالم العربي**، ط1، دار الأمين، القاهرة، 1427ه، 2006م، ص94.

[5] - شاكر مصطفى: **موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها**، ج3، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1993م، ص1580.

- وزع السلطان سليم قواته ومدفعيته بحيث تستطيع الاختباء خلف سلاسل من العربات المتصلة بعضها ببعض وخلف حواجز من الأشجار والأخشاب.
- امتازت المعدات المقاومة للخيالة، كالشوكات، والخطافات الحديدية المربوطة بالحبال، بأهمية كبيرة في المعركة، إذ كان الجنود العثمانيون يطلقون هذه الأدوات على فرسان المماليك المدججين بالسلاح فيسحبون فرسانهم من على ظهور الخيل ويقتلونهم بالفأس أو بالسيف.
- كان العثمانيون يمتلكون أفضل مدفعية في العالم آنذاك واستخدموا أحدث أنواع المدفعية النحاسية المركبة على عجلات يجر الواحد منها زوج من الثيران، في حين لم يعرف الجيش المملوكي مثلها.
- بالرغم من أن جنود الجيش العثماني كانوا ينتمون إلى قوميات مختلفة وطوائف دينية متعددة، إلا أن هذا الجيش عرف بانضباطيته وتماسكه المعنوي على عكس الجيش المملوكي الذي تنازعه الإحجام[1].
- انسحاب بعض أمراء الشام من الجيش المملوكي وانضمامهم إلى الجيش العثماني عند بدء القتال أمثال خاير بك نائب حلب قائد الميسرة وجانبرد الغزالي مما أثر سلبا على قوة ومعنويات السلطان الغوري[2].
- تراجع القاعدة الإسلامية للمماليك بفعل الانتفاضات الشعبية ضدهم في القرى والمدن الإسلامية، فالفرنجة في بلاد الشام كانوا يتحينون الفرصة المناسبة لتحقيق أطماعهم في الاستيلاء على بيت المقدس[3]، فعندما قرب أجل الملك فرديناند الكاثوليكي سنة 1516م أوصى أولاده قائلا : "عليكم أن تعملوا على تحطيم أتباع الديانة المحمدية، ويقصد بذلك استئصال المسلمين من جذورهم والقضاء على الإسلام"[4].

---

[1] - محمد سهيل طقوش، **المرجع السابق**، ص155، 156.

[2] - محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: **المصدر السابق**، ص76.

[3] - شوكت رمضان حجة: **العلاقات بين دولة المماليك الأولى ودولة ايلخانية فارس (648 – 736ه/1250م – 1335م)**، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن، 2005م، ص85.

[4] - بشرى محمود انزويعي: **محاكم التفتيش الاسبانية (1480م، 1516م)**، دار زهران، عمان، ص117.

المبحث الثاني : ضم العثمانيين مصر، معركة الريدانية 1517م

استعد السلطان طومان باي الذي أنتخب مكان السلطان قانصوه وأبدى جهودا جبارة في تجهيز جيشه بشكل تام، وقام بتحصين القاهرة بصورة ممتازة، كان شخصا جسورا، وكانت الخطة المملوكية مبنية على أساس هزيمة ياوز وإجباره على التراجع إلى الصحراء ومطاردته فيها وإبادته، ثم يكون استرداد سوريا بعد ذلك من الأمور البسيطة[1].

توجه السلطان طومان باي في 19 ذي الحجة من عام 922ه / 1516م إلى الريدانية، وأقام المدافع وحفر خندق من الجبل الأحمر، ولما نزل العثمانيون بركة الحاج، وأقاموا بها يومين ولم يتعرض لهم طومان باي، ثم فاجأ العثمانيون طومان باي بالهجوم عليه بجنودهم إلى الجبل الأحمر وأعلن طومان باي النفير والخروج لملاقاة العثمانيين فركب الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربا، وركب الجنود وأقبل جنود العثمانيين وتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية، فكانت معركة تفوق معركة مرج دابق.

قتل كثير من جنود العثمانيين وقتل كبير وزراء السلطان العثماني لالاباشا، ثم هجم العثمانيون على الجند المصريين من جهتين، فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر، والفرقة الأخرى جاءت للجنود المصريين عند الوطاق بالريدانية، وقذفوهم بالبندق الرصاص، وكان هجوم العثمانيين عنيفا فانهزم جيش طومان باي، وبقي معه قليل من الجند الرماة، والمماليك فلما أدرك طومان باي ألا حيلة له في مواصلة القتال أسرع بالانسحاب من المعركة فهجم العثمانيون على الوطاق المصري واستولوا على جميع مافيه من أقمشة وأسلحة وخيول وجمال وأبقار وعربات وغير ذلك.

وأثناء المعركة كان المصريون يحاربون ببسالة شديدة، لكنهم لم يكونوا يعرفون البارود ولا المدافع، ولا يعرفون استخدامها فكانت الغلبة للعثمانيين، ففر المصريون إلى

[1] - يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، المصدر السابق، ص226.

القاهرة، وعسكر العثمانيون في الروضة[1]،فانتصر السلطان العثماني وقضت الأسلحة النارية العثمانية على 25 ألف مملوكي[2].

كانت المواجهة حاسمة بين العثمانيين والمماليك في الريدانية، وقد تفوقت فيها مدافع وبنادق العثمانيين على الأسلحة التقليدية التي تسلح بها المماليك ولحقت بطومان باي هزيمة قاسية رغم أنه حارب بشجاعة وجرأة وبذلك أصبحت القاهرة تحت رحمة العثمانيين.

والواقع أن هزيمة المماليك في الريدانية كانت أمرا لامحيد عنه نظرا لأن الخيانة ظلت تلعب دورها حتى آخر لحظة في تاريخ السلطنة المملوكية إذ كان الخائن جانبرد الغزالي قد اتصل بشريكه في الخيانة الأمير خاير بك، وأعلمه بخطة السلطان طومان باي في الدفاع الأمر الذي جعل العثمانيين يتجنبون في زحفهم نحو القاهرة التحصينات التي أقيمت بالريدانية، وأمعن خاير بك في التنكيل بالمماليك بأن أقنع الغزالي بإخفاء الأسلحة حتى المرحلة الأخيرة من مراحل القتال، مما كان له أسوأ الأثر على الجند حين وجدوا أنفسهم وراء الخندق معرضين لبنادق العثمانيين.

لم يفقد طومان باي الأمل في الاحتفاظ بسلطنة المماليك، فعمل على تحصين بوابات القاهرة، واستدعى المصريين للدفاع عن أنفسهم، كما حرر قرابة ستة آلاف من العبيد السود وجهزهم بالأسلحة[3].

وفي 22 ذي الحجة عام 922ه /1516م دخل العثمانيون القاهرة ومعهم الخليفة العباسي أمير المؤمنين المتوكل على الله، وجماعة القضاة وأعلن السلطان سليم للناس الأمان، والاطمئنان والبيع والشراء، وأنه قد أغلق باب الظلم وفتح باب العدل. وخطب السلطان سليم العثماني على منابر مصر والقاهرة وبعد أن تم الأمر للسلطان العثماني وفتح

---

[1] - جرجي زيدان: المرجع السابق، ص88.

[2] - حسان حلاق: تاريخ الشعوب الإسلامية الحديث والمعاصر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 2000م، ص99.

[3] - محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: المصدر السابق، ص144 – 146.

مصر والقاهرة[1]، وزع العطايا على علماء القاهرة وحضر عيد فيضان النيل وأكرم البدو في سيناء ومدين على طريق الحج[2].

أظهر طومان باي شجاعة لاتقل عن شجاعة الغوري في مرج دابق، فحلت الهزيمة بالمماليك وفر طومان باي ليواصل المقاومة بين طرقات القاهرة وأحيائها حتى نجح فعلا في إخراج سليم من القاهرة بعد أن دخلها، ففوجئ طومان باي أثناء جهوده الجبارة على ضفاف النيل بالجيزة بهجوم البدو الأعراب على مؤخرته، مما أوقعه بين نارين، فاضطر إلى التقهقر إلى قرب وردان حيث دارت معركة بين جيشه الصغير والعثمانيين، وعندما انتصر عليه العثمانيون، فر طومان باي إلى أحد مشايخ الأعراب واسمه حسن بن مرعي، طالبا حمايته، ولكن هذا الشيخ نسي ماكان لطومان باي من فضل سابق عليه إذ كان قد أخرجه من السجن أيام الغوري فتنكر له وسلمه للعثمانيين ولما وقع طومان باي في قبضة السلطان سليم، فرح السلطان العثماني وصاح " الآن ملكنا مصر" وتجمع المراجع على شجاعة طومان باي عندما وقف بين يدي السلطان سليم العثماني ولما عاتبه لأنه لم يطعه من أول الأمر، رد عليه طومان باي" الأنفس التي تربت في العز لاتقبل الذل، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب "[3]، وهكذا حتى سيق طومان باي إلى باب زويلة حيث شنق سنة 923ه (23 أفريل سنة 1517م)[4]، وأرسل السلطان سليم الأول الصرة المعتاد إرسالها إلى الحرمين الشريفين لتوزيعها على الفقراء وكانت الصرة ترسل من عهد سلطان الدولة العثمانية محمد جلبي ومبلغها ثمانية وعشرين ألف دوكا ذهبيا[5].

---

[1] - محمود السيد:**تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2004م، ص88، 89.

[2] - عدنان العطار: **المرجع السابق**، ص58.

[3] - سعيد عبد الفتاح عاشور: **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**، دار النهضة العربية، لبنان، ص281، 282.

[4] - إسماعيل أحمد ياغي: **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1416ه، 1996م، ص61.

[5] - محمد الطاهر سحري: **المرجع السابق**، ص125.

وبذلك دانت مصر وبلاد الشام والأراضي الشريفة في مكة والحجاز للحكم العثماني، وأصبحت الدولة العثمانية الزعيمة الدينية والسياسية والعسكرية للعالم الإسلامي[1].

في 11 محرم 923ه /الموافق 3 فيفري 1517م تمكن السلطان سليم الأول من احتلال مصر، فأرسل له الريس عروج مع الريس مصلح الدين كورث أوغلو الهدايا والتحف الثمينة كتبريك له بفتح مصر، وقد عرض عليه مراسيم العبودية والطاعة، وأعلم السلطان سليم الأول بما حققه من انتصارات هو ورفاقه الأبطال، فرد عليه السلطان سليم بجواب تقدير وإعجاب وتقبل عرض عروج بكل ممنونية[2].

ولما خضعت مصر للعثمانيين عام 1517م[3]، فان حكمهم لم يكن إلا امتدادا لحكم وأنظمة المماليك مع بعض التعديلات الطفيفة، ثم أضافوا الطابع التركي على الحياة المصرية[4].

كان السلطان سليم الأول قد فتح القدس عام 1516م بعد أن تغلب على المماليك في معركة مرج دابق وأحكم قبضته على القدس وبلاد الشام ثم زحف إلى مصر وفتحها[5].

ومنذ أن اتجه السلطان سليم الأول بقواته لضم المشرق العربي زاد نشاط الأوروبيين وفرسان القديس يوحنا المعادي ضد الدولة العثمانية في البحر الأبيض المتوسط[6].

---

[1] - خليل اينالجيك: **تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار**، تر: محمد م. الأرناؤوط، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، ص92.

[2] - عزيز سامح التر: **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، تر: محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1409ه، 1989م، ص58، 59.

[3] - عباس حمداني: **رد العثمانيين على اكتشاف أمريكا والطريق الجديد إلى الهند**، جامعة وسكانسون، ميلوا كي، ص4.

[4] - حسان حلاق: **مدن وشعوب إسلامية**، ج1، دار الراتب الجامعية، بيروت، ص41.

[5] - محمد حسن العيدروس: **دراسات في المشرق العربي الحديث**، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 1431ه، 2010م، ص224.

[6] - خلف بن دبلان بن خضر الوذيناني: **الفتح العثماني لجزيرة رودس (929ه/ 1523م)**، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1418ه، 1997م، ص36.

وعندما احتلت الدولة العثمانية البلاد العربية خضعت لهم الصومال وشرق إفريقيا وأسسوا أسطولا في البحر الأحمر[1] وتوسعوا غربا بعد فتح مصر1517م ونقلوا الخلافة إليهم، وتم توحيد معظم الأراضي الإسلامية من حدود المغرب حتى بلاد فارس ضمن إطار حضارة إسلامية غطت ميادين الإدارة والقضاء والاقتصاد، في حين كان أعظم انجاز حضاري عثماني هو الأخذ بنظام القانون العام إلى جانب الشريعة الإسلامية[2].

وبعد أن قضى العثمانيون على السلطة المملوكية وفتحوا سوريا ومصر في 1516م – 1517م شكل هذا مرحلة كبرى في العملية المزدوجة الخاصة بتكوين اقتصاد - عالم عثماني وإعادة بناء جماعة موحدة من المؤمنين[3].

شهدت الفترة بين 1516م – 1918م وقوع البلاد العربية تحت الحكم العثماني[4]، كما انتقلت الخلافة إلى العثمانيين عام 932ه / 1517م فحافظوا عليها حتى عام 1342ه / 1924م[5].

دافع سلاطين الدولة العثمانية وهم من أسرة آل عثمان التي كانت أكبر عائلة إسلامية عرفها التاريخ عن الإسلام دفاعا قويا، وزادوا في رقعته وفي عدد معتنقيه[6]، فاستطاعوا في أقل من ثلاثمائة سنة أن يخلقوا من لاشيء إمبراطورية مترامية الأطراف فقد وصلت في ذلك الحين إلى مدخل مدينة (فيينا) عاصمة النمسا، وحدود ايطاليا وجزر البحر الأبيض

---

[1] - مفيد الزيدي: **موسوعة تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، ط1، دار أسامة، عمان، 2004م، ص2004.

[2] - إبراهيم الداقوقي: **صورة الأتراك لدى العرب**، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001م، ص52.

[3] - هنري لورنس: **الموسوعة السياسية العالمية (الحملة الفرنسية في مصر بونابرت والإسلام)**، تر: بشير السباعي، ط1، مينا للنشر، القاهرة، 1995م، ص73.

[4] - أحمد داود أوغلو: **العمق الاستراتيجي موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية**، تر: محمد جابر ثلجي،وطارق عبد الجليل، مرا: بسير نافع وبرهان كورو غلو، ط2، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1432ه، 2011م، ص65.

[5] - سهيل صابان: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مرا: عبد الرزاق محمد بركات، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1421ه، 2000م، ص116.

[6] - سليمان بن صالح الخراشي: **كيف سقطت الدولة العثمانية**، ط1، دار القاسم، الرياض، 1420ه، ص11.

المتوسط الشرقية وبلاد الجزائر وطرابلس الغرب وتونس ومصر في إفريقيا الشمالية والسويس والبحر الأحمر وبلاد العرب وسوريا وفلسطين[1].

بعد أن وطد العثمانيون سلطانهم في معظم الشرق الأوسط من مصر واليمن إلى العراق والخليج العربي وسقوط دولة المماليك في مصر والشام والحجاز 1517م لم يولي العثمانيون موضوع تجارة المحيط الهندي أهمية[2]، وأفاد العثمانيون كثيرا من علم وحضارة مصر إذ نقل السلطان سليم الفنانين والمفكرين والعلماء إلى اسطنبول حيث أفاد من فنهم وعلمهم وخبرتهم[3].

ففي 7 أكتوبر 1517م وصل سليم الأول إلى دمشق وأقام بها أربعة اشهر قبل أن يتوجه إلى اسطنبول في 21 فيفري 1518م[4].

أسباب انتصار العثمانيين في معركة الريدانية :

- كانت القوة الضاربة في الجيش المملوكي تبلغ مائة وثلاثة وثلاثون ألف فارس من الشراكسة كما كان لدى هذا الجيش ثلاثة وتسعون ألف مقاتل من البدو المتطوعين ومع ذلك فقد عانى طومان باي من نقص في عديد جيشه ولم يتمكن من حشد أكثر من أربعين ألف مقاتل بما فيهم البدو. لكن هؤلاء لم يكونوا منتظمين إذ من المعروف أن البدوي لاتستهويه الحرب النظامية[5]. بالإضافة إلى التركمان وهم عنصر في الجيش المملوكي فيرجع استخدامهم إلى ماقبل عصر سلاطين المماليك[6].

---

[1] - ماري ملز باتريك: **صفحات من تاريخ تركيا الاجتماعي والسياسي والإسلامي (سلاطين بني عثمان)**، ط1، مؤسسة عز الدين، بيروت، 1407ه، 1986م، ص41.

[2] - محمد رياض: **الشرق الأوسط (دراسة في التطبيق الجيوبوليتيكي والسياسي)**، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1974م، ص42.

[3] - زاهية قدورة: **تاريخ العرب الحديث**، دار النهضة العربية، بيروت، ص326.

[4] - جيرار ديجورج: **دمشق من عصور ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية**، مراوتق: محمود ماهر طه، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م، ص212.

[5] - محمد سهيل طقوش: **المرجع السابق**، ص158.

[6] - الباز العيريني: **المماليك**، دار النهضة العربية، بيروت، ص73.

- كانت الظروف القتالية في صالح المماليك الذين يقاتلون على أرضهم وهم عازمون في الدفاع عنها، لكنهم لم يحسنوا استغلالها.
- كان لدى الجيش المملوكي مائتي مدفع استعملها في المعركة إلا أنها كانت مدافع قلاع ليست متحركة ولا يمكن مقارنتها بالمدافع العثمانية، وتمكن العثمانيون من إسكاتها بعد بدء المعركة.
- استعمل السلطان سليم الأول لأول مرة في حملته هذه المدافع المصبوبة حديثا بالإضافة إلى المدافع المجرية التي تطلق من خمس إلى عشر طلقات بين الطلقة والطلقة فترة زمنية قصيرة.
- وضع المماليك خطتهم العسكرية على أساس أن الجيش العثماني سيدخل القاهرة من الناحية العادلية لأنها الطريق الطبيعي لدخول المدينة. فركزوا مدفعيتهم على هذا الطريق، فكان على الجيش العثماني أن يجتاز التحصينات المملوكية الموجودة فيها.
- وقف السلطان سليم على نظام التعبئة الذي نفذه المماليك، فاتبع خطة عسكرية مرنة، وبناء على ذلك أمر عدة كتائب من جيشه بالتظاهر بالهجوم في حين تقدم هو على رأس جيشه الكبير إلى الجنوب والتف حول جبل المقطم حتى أصبح خلف القوات المملوكية، وبعمله التكتيكي هذا ضمن كسب المعركة، لأن طومان باي اضطر إلى الخروج إلى الصحراء المفتوحة لمجابهة العثمانيين. وفشلت المدافع المملوكية الموجهة إلى جهة عكسية من القيام بأي عمل جدي لوقف الزحف العثماني، وبذلك يكون سليم قد شل حركة المدفعية المملوكية قبل أن يدمرها ثم تقدم وهو مطمئن إلى قلب المدينة[1]. وبهذا انهزم المماليك الذين توسعت مصر في استخدامهم قبل قيامها بوقت طويل[2]، كما أنهم لعبوا دورا هاما في تنظيم مصر على وجه الخصوص[3].

---

[1] - محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 158، 159.

[2] - أحمد مختار العبادي: في التاريخ الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2006م، ص24.

[3] - André Raymond : **Grandes Villes Arabes A L'époque Ottomane**, La Bibliothèque Arabe Sindbad, Paris, 1985, P75.

المبحث الثالث : انجازات سليم الأول بعد فتح مصر وانهيار الحكم المملوكي

التوسع في مصر وأعمال السلطان سليم الأول في القاهرة

بدأ العثمانيون زحفهم نحو مصر رغم بعض الصعوبات التي واجهوها أثناء اجتيازهم لصحراء سيناء من جراء المناوشات التي سببتها لهم القبائل البدوية وقد وصلت الأنباء إلى القاهرة بأن العثمانيين قد استولوا على مدينة غزة بعد أن هزمت الحملة العسكرية التي أرسلها طومان باي بقيادة جانبرد الغزالي للدفاع عنها.

كانت خطة طومان باي أن يتقدم للقاء الجيش العثماني قبل أن يصل إلى موارد المياه، وقبل أن يسترجع أنفاسه من مشاق عبور الصحراء إلا أن أمراء المماليك رفضوا هذه الخطة وقرروا أن يكون ميدان المعركة قرب القاهرة، وقد حاول السلطان المملوكي في هذه المرة أن يواكب التطورات في ميدان تسليح الجيش لهذا قام بتسليح قواته بالأسلحة الحديثة من بنادق ومدفعية، لكن هذا الإجراء كان محدود وعلى نطاق ضيق بسبب الموقف الرافض من غالبية المماليك، التقى الطرفان في جانفي عام 1517م في الريدانية، لكن نتيجة المعركة كانت لصالح الجيش العثماني هذا الأخير الذي راح يتعقب الفلول الهاربة حتى مدينة القاهرة التي فتحت أبوابها أمام العثمانيين المنتصرين الذين قاموا من جانبهم بأعمال السلب والنهب، واقتحموا بيوت الأمراء واستولوا على مافيها وفي هذه الأثناء نقل السلطان العثماني سليم الأول معسكره من الريدانية إلى بولاق التي اتخذها مركزا لقيادته وأعماله الحربية.

بقي سليم الأول في القاهرة ليدرس أحوالها بنفسه فأحسن استقبال سفراء مدينة البندقية وعقد معهم معاهدة تجارية، ثبت لهم فيها امتيازاتهم السابقة كما اجتمع وزراء السلطان وطالبوا كبار التجار والوراقين والبناءين والنجارين والممرضين والبلاطين والحدادين وغيرهم من أرباب الحرف، وكتبوا أسماءهم وألزموهم بالسفر إلى العاصمة[1]، أما عن المماليك فقد أصدر أمره بعدم التعرض لهم ولممتلكاتهم والاستمرار في صرف مرتباتهم كما

[1] - الغالي غربي: المرجع السابق، ص 62، 63.

جرت العادة ليحتفظ بهم كعنصر هام في إدارة البلاد[1]، وقدرت مدة إقامة السلطان سليم الأول في القاهرة حوالي ستة أشهر ورغم قصر المدة إلا أنه وضع فيها الأسس والدعائم الأولى لنظام الحكم العثماني في مصر وبقية البلدان العربية.

وهذه الأسس تقوم على حكم غير مباشر اعتمادا على وظائف ثلاثة للدولة أمام رعاياها وهي:

1/ توفير الأمن والحماية للرعية والدفاع عنها بإنشاء جيش.

2/ خلق جهاز قضائي للفصل بين الناس.

3/ خلق جهاز مالي لتحصيل الضرائب المفروضة على مصادر الإنتاج، وهذه المبادئ التي سنها السلطان سليم الأول يمكن تعميمها على بقية مواصفات الحكم العثماني في بقية البلاد العربية والإسلامية[2].

قسم السلطان سليم الأول مصر إلى مماليك الوجه البحري ولاية، ومماليك الوجه القبلي ولاية أخرى والقاهرة جعل بها وال عثماني يتبع السلطان والكل منقادين إلى وزير الديوان الكبير، وجعل جيشها سبع وجاقات. وجعل للباشا حفظ البلاد وتوصيل أوامر السلطان إلى الديوان الكبير الذي له حق نقض أوامر الباشا وعزله وجعل المماليك جباة للخراج بأوامر تصدر من الديوان الكبير.

أما الوجاقات فكانت عشرين ألف من المشاة، واثني عشر ألف من الخيالة، وعشرة آلاف لحفظ جدة وينبع ومكة والمدينة المنورة. وأنشأ أسطولا في السويس لمحاربة البرتغاليين، ولكن هذه الإصلاحات لم تستمر وعاد المماليك لإلحاق الذل والاهانة بالأهالي، فهاجر كثير منهم إلى الشام والحجاز وتعطلت الزراعة حتى عصر السلطان محمود الثاني.

وكان السلطان سليم عين خاير بك حاكم دمشق المملوكي واليا على مصر مكافأة له لخيانته للسلطان الغوري في معركة مرج دابق، وكذلك أمر السلطان سليم الأول ببناء جامع محي الدين بن عربي فعمل المهندس الدمشقي تقي الدين على بنائه بهندسة نادرة فقد أقام

---

[1] - André Raymond : **Ibid**, P75,76.

[2] - الغالي غربي: المرجع السابق، ص63، 64.

المئذنة على أقواس تحتها فراغ وعاد السلطان عام 924ه وصلى بالجامع، في عام 924ه وصل أدرنة سفير من مملكة اسبانيا ليخبره حول السماح للمسيحيين زيارة القدس مقابل المبلغ الذي كان يدفع للمماليك، وكذلك أتى إليها مندوب دوقية البندقية ليدفع له خراج سنتين المقرر عليها نظير احتلالها لقبرص[1].

العوامل الرئيسية في انهيار الدولة المملوكية :

هناك مجموعة من العوامل تجمعت وتسارعت في وضع نهاية لدولة المماليك وقوة نفوذهم في دول المشرق الإسلامي أهمها[2]:

1 – عدم تطوير المماليك أسلحتهم وفنونهم القتالية، فبينما كان المماليك يعتمدون على نظام الفروسية الذي كان سائدا في العصور الوسطى، كان العثمانيون يعتمدون على استخدام الأسلحة النارية وبخاصة المدفعية.

2 – كثرة الفتن والقلاقل والاضطرابات بين المماليك حول ولاية الحكم مما أدى إلى عدم استقرار الحكم في أحرج الأوقات.

3 – كره الرعايا للسلاطين المماليك الذين كانوا يشكلون طبقة أرستقراطية مترفعة ومنعزلة عن الشعوب[3].

4 – سوء الأحوال الاقتصادية، وبخاصة عندما تغيرت طرق التجارة المارة بمصر واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح.

5 – وقوع بعض الخيانات بين صفوف المماليك، كما فعل والي حلب "خاير بك وجانبرد الغزالي"، مما أدى إلى سرعة انهيار الدولة المملوكية.

6 – العامل الجامع للأسباب السابقة ضعف التزام المماليك بمنهج الله ويقابله قوة تمسك العثمانيين بشرع الله[4].

---

[1] - عدنان العطار: **المرجع السابق**، ص58،59.

[2] - أحمد مختار العبادي: **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص30.

[3] - جميل بيضون وآخرون: **المرجع السابق**، ص40.

[4] - علي محمد الصلابي: **الدولة العثمانية(عوامل النهوض والسقوط)**،ط2 ، دار المعرفة، بيروت، 1426ه، 2005م، ص214، 215.

وقد يرى بعض المؤرخين أن الخيانات التي حدثت بين صفوف المماليك لاقيمة لها بعد أن ظهر عجز المماليك عن دفع العثمانيين، وأن سلطنة المماليك كانت على وشك الانهيار، ولكن الواقع أنه لو لم تحدث هذه الخيانات لطال أمر النضال، وربما انتهى إلى عقد صلح بين الطرفين وبقاء طومان باي على عرش مصر، نظير الاعتراف الاسمي بالسيادة العثمانية، كما فقدت الدولة المملوكية موردا رئيسيا من موارد دخلها كانت تحصل عليه من المكوس التي كانت تفرضها على التجارة العابرة ، وانعكس سوء الحالة الاقتصادية بصورة مباشرة على الإعداد الحملة التي قادها الغوري لملاقاة العثمانيين في مرج دابق، فلم تكن الأموال التي تحت تصرفه كافية لدفع نفقة الحرب الكاملة لجميع أفراد الجيش المملوكي مما أدى إلى تذمر بعض فئات الجند وبالتالي كان هذا الوضع أخطر الآثار على تمسك القوات المملوكية في أحرج اللحظات[1].

وبدخول السلطان سليم الأول (1512م – 1520م)[2] مدينة القاهرة طويت بذلك دولة المماليك وانتقلت من مسرح الأحداث إلى كتب التاريخ[3].

ففي السنوات الأولى من القرن السادس عشر عندما اصطدمت الدولة العثمانية بدولة المماليك وعقدت ألوية النصر للدولة العثمانية وورثت ملك المماليك في مصر و الشام[4]، انهارت دولة المماليك التي دام حكمها مدة قاربت الثلاثة قرون (648ه-923ه/1250م-1517م)[5].

---

[1] - عمر عبد العزيز عمر: **المرجع السابق**، ص82، 83.

[2] - علي أحمد فليفل: **الدولة العثمانية والمسلمون في جنوب إفريقيا (دراسة وثائقية للفترة من 1856م، 1878م)**، ط1، مركز دراسات المستقبل الإفريقي، القاهرة، 1420ه، 2000م، ص15.

[3] -ربيع حامد خليفة: **فنون القاهرة في العهد العثماني (923ه-1517م، 1220ه-1805م)**، ط2، مكتبة زهراء الشرق، 2001م، ص09.

[4] - عمر عبد العزيز عمر: **محاضرات تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2001م، ص15.

[5] - أحمد محمود القوصي: **موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية (العصر المملوكي)**، م5، دار الفكر العربي، القاهرة، 2008م، ص01.

سليم الأول وضم الحجاز :

يعد الحجاز في نظر أي خليفة يسعى إلى الاستخلاف على العالم الإسلامي، أمرا حيويا لما للحجاز من مكانة خاصة في نفوس المسلمين، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون الحجاز محط آمال السلطان سليم الأول، مدركا تمام الإدراك أن ضمه البلاد المذكورة ستقوي مكانته في العالم الإسلامي، خاصة بعد أن أصبحت دمشق تحت حكمه، والقاهرة في قبضته، وأصبح الخطباء يخطبون باسمه على منابر بغداد وتبريز[1].

كان الحجاز تابعا للمماليك، وما أن وصلت أنباء مقتل الغوري وطومان باي إلى شريف مكة "بركات بن محمد بركات (1495م، 1524م) حتى بادر إلى تقديم الطاعة إلى السلطان سليم الأول في مصر، فأرسل ابنه " أبو نمي" والبالغ من العمر ثلاثة عشر عاما في 3 جويلية 1517م وسلمه مفاتيح الكعبة وبعض الآثار فأقر السلطان سليم شريف الحجاز بركات باعتباره أميرا على مكة والحجاز، ومنحه صلاحيات واسعة[2].

وبذلك أصبح السلطان سليم خادما للحرمين الشريفين وأصبحت مكانته أقوى أمام الشعوب الإسلامية، وبخاصة أن الدولة أوقفت أوقافا كثيرة على الأماكن المقدسة، وكانت إيراداتها تصب في خزانة مستقلة بالقصر السلطاني، وقد أدى ضم الحجاز للعثمانيين إلى بسط السيادة العثمانية في البحر الأحمر مما أدى إلى دفع الخطر البرتغالي عن الحجاز والبحر الأحمر، واستمر هذا حتى نهاية القرن الثامن عشر[3].

---

[1] - عبد المنعم الهاشمي: **المرجع السابق**، ص270، 271.

[2] - جميل بيضون وآخرون: **المرجع السابق**، ص40، 41.

[3] - عيسى الحسن: **تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية**، ط1، الأهلية، بيروت، 2008م، ص494.

اليمن:

كانت اليمن تابعة للمماليك، وعندما انهار النظام المملوكي في مصر[1] وضعف سلاطين المماليك الجراكسة الذين عرفوا بالبرجية، وحكموا مصر من سنة 1382م إلى سنة 1517م[2].

أرسل " اسكندر الجركسي" حاكم اليمن المملوكي وفدا إلى السلطان سليم ليقدم فروض الولاء والطاعة له، فوافق السلطان العثماني على إبقائه في منصبه[3].

ولكن السيطرة العثمانية على اليمن كانت ضعيفة ويعود ذلك إلى الصراعات الداخلية بين القادة المماليك إلى جانب ازدياد نفوذ الإمامة الزيدية بين قبائل الجبال، هذا فضلا عن الخطر البرتغالي الذي كان يهدد السواحل اليمنية، وهذا دفع السلطان إلى إرسال قوة بحرية إلا أنها فشلت بسبب النزاع الذي دب بين قائدها " حسين الرومي " متصرف جدة " والريس سلمان" أحد قادة البحر العثمانيين ، لكن اليمن هي مفتاح البحر الأحمر، وهي بالتالي التي تضمن سلامة الأماكن المقدسة في الحجاز والسيطرة عليها للتحكم في البحر الأحمر والعربي[4].

ولم يكن باستطاعة العثمانيين السيطرة على اليمن إلا في عام 1538م أي بعد نحو عشرين عاما من دخولهم مصر[5].

---

[1] - أحمد حسين عبد الجابوري: **القدس في العهد العثماني (1516م، 1640م)**، ج1، ط1،دار الحامد، عمان، 2011م، ص42.

[2] - أحمد محمود القوصي: **موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية (الإسلام والمسلمون في مصر)**، م3، دار الفكر العربي، القاهرة، 2008م، ص48.

[3] - عيسى الحسن: **المرجع السابق**، ص494.

[4] - جميل بيضون وآخرون: **المرجع السابق**، ص41.

[5] - أحمد النعيمي: **تركيا والوطن العربي(1428ميلادية، 1998افرنجي)**، أكاديمية الدراسات العليا والبحوث الاقتصادية، طرابلس، ص15.

العراق:

سيطر العثمانيون على شمال العراق، والموصل والمناطق المجاورة بعد انتصار السلطان سليم الأول على الصفويين في معركة (جالديران 22 محرم 920 ه الموافق 9 مارس سنة 1514م)[1].

وعين السلطان أحد قواده " فرهاد باشا" لإكمال احتلال الولايات المتاخمة للدول العثمانية، وكلف فرهاد باشا ومحمد باشا بالسيطرة على الموصل وأربيل وكركوك، فقام الأخير باحتلالها عام 1515م، غير أن الحكم العثماني في هذه المناطق ظل قلقا بسبب الموقف السلبي الذي اتخذه السكان العثمانيين آنذاك[2].

وبناء على الخطة الإستراتيجية العثمانية التي تقوم على عزل الصفويين عن الوطن العربي والتي لاتتم إلا بإكمال الحصار البري والبحري، والقضاء على كل احتمالات الاتصال بين الصفويين والبرتغال، ثم وضع حد للنفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، لذلك أعد السلطان سليم حملة لاحتلال العراق وطرد الصفويين لكن الموت عاجله سنة 1520م[3].

آخر أيام خادم الحرمين الشريفين(في وداع سليم الأول) :

كان السلطان سليم الأول منشغلا بتجهيز حملة عسكرية بحرية لمعاودة الهجوم على جزيرة رودس بحرا لقتال فرسان القديس يوحنا[4] فالبابا ليوا العاشر(1513م، 1521م) قام بتشييد كنيسة القديس بطرس[5]. وكان يستعد أيضا لمحاربة شاه العجم ثانيا فجمع خمسة عشر ألف فارس بمدينة قيصرية* وضم إليهم ثلاثين ألف جندي من المشاة تحت قيادة فرحات باشا بيلر بك الأناضول، وأرسل إليهم عددا كبيرا من المدافع والذخيرة[6] لكن يد الموت لم تمهله إذ

---

[1] - جميل بيضون وآخرون: **المرجع السابق**، ص42.

[2] - عبد الرحيم عبد الرحمان: **المرجع السابق**: ص46.

[3] - جميل بيضون وآخرون: **المرجع السابق**، ص42، 43.

[4] - كارل بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تر: أمين فارس، دار الأنيس، وهران، 2011م، 2012م، ص423.

[5] - فائق طهبوب:، محمد سعيد حمدان: **تاريخ العالم الحديث والمعاصر**، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، القاهرة، 2007م، ص35.

* مدينة تقع في وسط الأناضول بين أنقرة وملاطية. أنظر: وديع أبو زيدون: **المرجع السابق**، ص82.

[6] - وديع أبو زيدون: **المرجع نفسه**، ص82.

توفي في رحلته من القسطنطينية إلى أدرنة في يوم 09 شوال سنة 926 ه/ 22 سبتمبر سنة 1520م في السنة التاسعة من حكمه عن عمر بلغ الحادية والخمسين، إذ كان تاريخ جلوسه على عرش السلطنة عام 918ه. وقد تميز السلطان سليم الأول بقدرات عظيمة نوجزها فيمايلي :

1 – القدرات القيادية الشخصية والجسدية.

2 – البراعة السياسية والحكمة في قراراته.

3 – هواياته التي تدل على نفسيته السوية فكان يهوى الصيد وسماع الشعر الفارسي.

4 – كان يهوى التاريخ ويحض على دراسته.

5 – اتصف بالقسوة وكان يرتاح عندما يجالس المؤرخين والشعراء حتى وان كان ذلك في ميادين القتال، وكان يستشيرهم ويأخذ منهم عظات التاريخ[1].

ولقد أخفى طبيبه الخاص خبر موته عن الحاشية ولم يبلغه إلا للوزراء فاجتمع كل من بيير محمد باشا وأحمد باشا ومصطفى باشا وقرروا إخفاء أمر موته حتى يحضر ولده سليمان من إقليم صاروخان خوفا من ثورة جديدة للانكشارية كما هي عادتهم[2].

ولقد اقتصر دور القوة الانكشارية حتى منتصف القرن الخامس عشر على دور عسكري محدود تستوعبه قوة الدولة السياسية والعلمية التي وفرها مؤسسات المجتمع وقواه المختلفة[3].

ولكن السلطان سليم الأول الذي عانى الكثير من تمرد الانكشارية في ميادين القتال، عمل في حياته على الخروج من هذه القاعدة لكبح جماحهم والحد بعض الشيء من شدة نفوذهم[4].

---

[1] - عبد المنعم الهاشمي: **المرجع السابق**، ص273.

[2] - محمد فريد بك المحامي: **المصدر السابق**، ص197.

[3] - حسين الضيقة: **الدولة العثمانية (الثقافة، المجتمع، السلطة)**، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت، 1417ه، 1997م، ص91.

[4] - السير هاملتون جيب وهارولد بوين: **المجتمع الإسلامي والغرب**، تر: حسين القيسي، ط1، دار المدى، دمشق، 1997م، ص32.

فكانت مدة حكمه كمدة حكم جده محمد الفاتح، أيام فتوحات خارجية وتنظيمات داخلية، إلا أنه كان ميالا لسفك الدماء فقتل سبعة من وزرائه لأسباب واهية، وبنى كثيرا من الجوامع وحول أجمل كنائس القسطنطينية إلى مساجد[1].

فكان ضم المناطق العربية أخيرا، وخاصة مكة والمدينة إلى الإمبراطورية العثمانية تشير إلى مرحلة جديدة، فقد أصبحت الدولة العثمانية في هذا الوقت دولة الخلافة، وأخذ سلطانها يمثل الحماية الكاملة للعالم الإسلامي وليس حماية لحدود الدولة العثمانية فقط.

وقد كان من مظاهر الوعي الجديد الذي نشأ نتيجة ذلك، قيام السلاطين العثمانيين بإعطاء الشريعة الإسلامية الأولوية في تسيير شؤون الدولة.

وهناك نتيجة أخرى لفتوحات سليم الأول، وهي أن العثمانيين أصبحوا يسيطرون الآن على أغنى مراكز طرق عبور التجارة في العالم، وهكذا تضاعفت واردات الدولة العثمانية وامتلأت خزائنها بالمال وبفضل كل هذا أصبح بوسع السلطان الجديد سليمان القانوني أن يمول خططه للقيام بفتوحات عالمية[2].

[1] - محمد فريد بك المحامي: المصدر السابق، ص197.
[2] - وديع أبو زيدون: المرجع السابق، ص83.

الخاتمة

الخاتمة

ومما تقدم ذكره يمكن استنتاج ما يلي :

- يعد السلطان سليم الأول أعظم سلاطين الدولة العثمانية، فلقد أجمع العديد من المؤرخين على ما تمتع به السلطان سليم الأول من مواصفات خاصة والتي جمعت القدرات القيادية الحربية والنشاطات الذهنية والجسدية، وكان هاويا الصيد وسماع الشعر الفارسي والاستماع إلى أحداث التاريخ، ورغم ما اتصف به من القسوة الرهيبة إلا أنه كان يرتاح عندما يجالس المؤرخين والشعراء حتى في ميادين القتال ليأنس باستشاراتهم وأفكارهم.
- قام السلطان سليم الأول خلال مدة حكمه التي استمرت ثماني سنوات وخمسة أشهر بأعمال جبارة، وكانت انجازاته التوسعية أكبر بكثير من سني عهده إذ جعل من الدولة العثمانية دولة عالمية حقيقية كبرى مهيبة لأعدائها.
- كان هدفه أن يحقق في إيران ما حققه صلاح الدين الأيوبي في مصر من حيث القضاء على الحكم الشيعي والسعي لإقامة اتحاد إسلامي والوصول إلى تركستان والهند إلا أن هذه المشاريع لم تتحقق، لكن شخصية السلطان سليم الأول سيطرت على كل الأحداث الكبرى التي وقعت في عهده فاتخذه الشعب العثماني بطلا قوميا.
- كما برز السلطان سليم الأول قائدا عسكريا لاسيما بعد أن هزم الصفويين في إيران والمماليك في سوريا ومصر ووسع أراضي الإمبراطورية شرقا وجنوبا، وضم الحجاز والمدن الإسلامية المقدسة.
- بينما كان الشاه ينشر المذهب الشيعي في الأناضول كان الغوري يستقبل في بلاطه الثائرين والفارين من وجه سليم وخاصة إخوته المطالبين بالعرش العثماني ومن ثم كان لابد وأن يقع الصدام بين سليم الأول من جهة والشاه إسماعيل أوالغوري من جهة أخرى.
- لقد كانت النتائج التي أسفرت عنها الحرب العثمانية – الصفوية أن استأصل الشيعة من الأناضول، ومنع زحف المذهب الشيعي على الشرق العربي الآسيوي وعلى

مصر، كما كانت موقعة جالديران حافزا على سرعة قيام السلطان سليم الأول بفتح الشام ومصر، وبعد أن أنزل الهزيمة بإسماعيل الصفوي في معركة جالديران 1514م دخل العاصمة تبريز ثم انسحب منها وعاد إلى بلاده.

- تمثلت أهم المعارك التي قادها السلطان سليم الأول ليحقق فتوحاته في الشام في معركة مرج دابق فلقد اصطدم الجيشان العثماني والمملوكي في يوم 25 رجب سنة 922ه / 23 أوت 1516م قرب حلب، وهزم المماليك وتوفي السلطان الغوري أثناء المعركة.
- زحف السلطان سليم الأول إلى مصر وفتحها ودخل القاهرة بعد أن هزم المماليك وسلطانهم طومان باي في معركة الريدانية 1517م.
- ما يجدر ذكره أن سقوط الدولة المملوكية أكسب الدولة العثمانية بلادا مهمة ومعمورة كبلاد الشام والجزيرة والحجاز في آسيا ومصر في افريقية وامتدت حدود الدولة في الجنوب من النوبة إلى سواكن بالسودان، وكانت جمهورية البندقية وبسبب جزيرة قبرص تدفع للمماليك ثمانية آلاف أوقية ذهب وبعد سيطرة العثمانيين على مصر وافقت البندقية على دفع هذه الضريبة إلى العثمانيين.
- من أهم النتائج التي تمخض عنها حلول العثمانيين محل المماليك هو الحيلولة دون تمكن البرتغاليين من السيطرة على اليمن والحجاز، كما تمخض عن سيطرة العثمانيين على مصر انضواء الحجاز بما فيها الحرمان الشريفان تحت الحكم العثماني.
- عاش المشرق العربي الإسلامي مدة أربعة قرون متتالية تحت حكم الدولة العثمانية (923ه، 1337ه، 1517م، 1918م) لتستمر سيطرة السلاطين غير العرب، بعد أن تحولت العاصمة لأول مرة في التاريخ العربي الإسلامي إلى مدينة غير عربية هي استانبول.

الملاحق

ملحـــق رقم : (02)

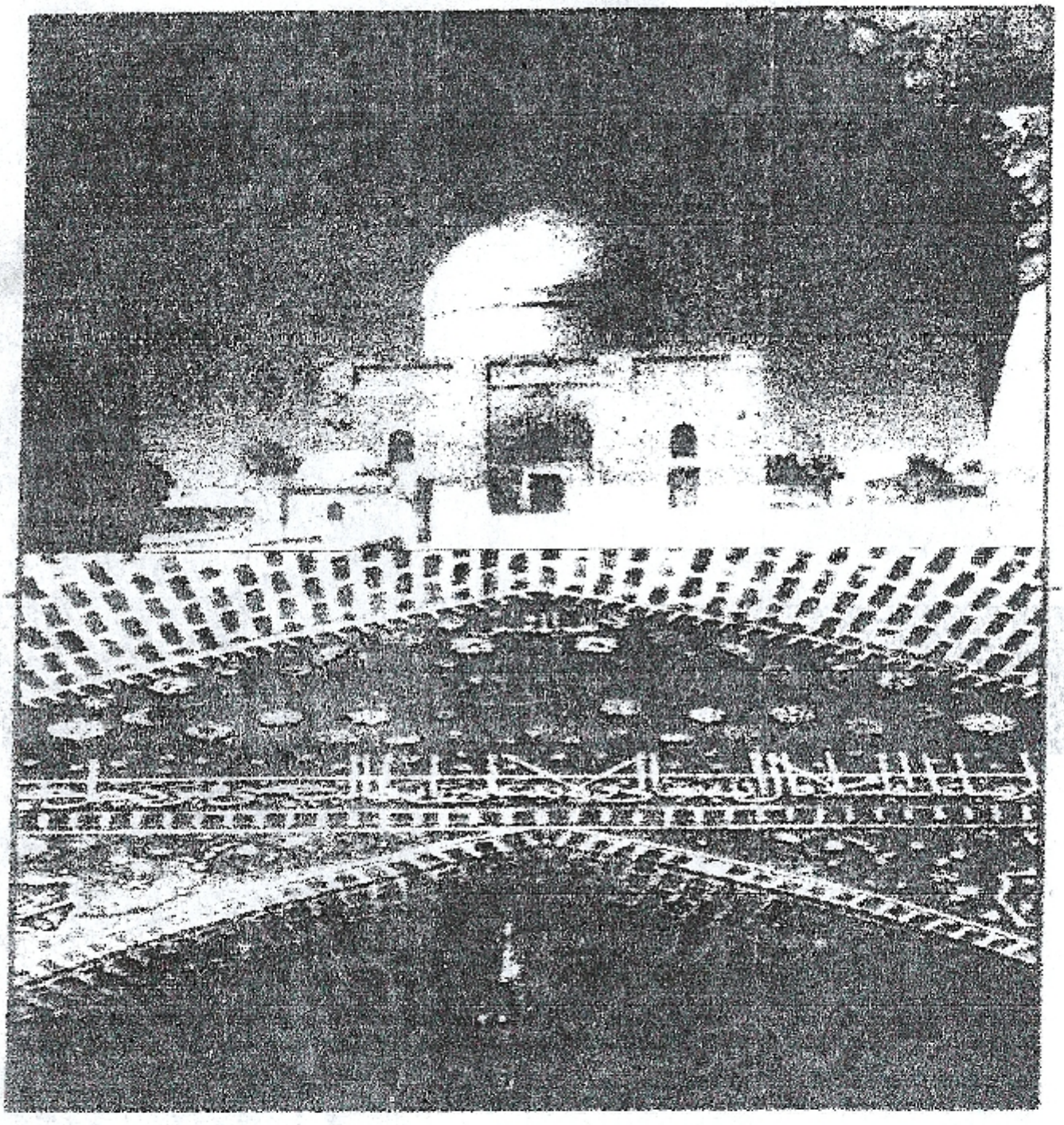

مقام الشيخ صفي الدين الأردبيلي وواجهة المدخل

1 - شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص14.